جماعة عباد الرحمن

سلسلة الإسلام للجميع

سيرة خير البشر

محمد صلى الله عليه وسلم

يوزع مجاناً

الطبعة السابعة عشر

١٤٣٢ هـ - ٢٠١١ م

الفهرس

المقدمة ٣
مولد محمَّد ﷺ وطفولته ٥
رحلته ﷺ إلى الشَّام مع عمِّه ٦
من صفات محمَّد ﷺ ٨
حلف الفضول ٩
زواجه ﷺ من خديجة رضي الله عنها ١٠
بناء الكعبة ١١
بدء نزول الوحي ١٢
بدء الدعوة ١٤
تعذيب المسلمين ١٥
الهجرة إلى الحبشة ١٧
إسلام حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه ١٩
إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه ٢٠
رسول قريش إلى النبي ﷺ ٢٢
مقاطعة بني هاشم ٢٣
عام الحزن ٢٥
رحلة الطائف ٢٧
الإسراء والمعراج ٣٠
بيعة العقبة الأولى ٣٢
انتشار الإسلام في المدينة ٣٣
بيعة العقبة الثانية ٣٤
المؤامرة بقتل النبي ﷺ ٣٥
خطبة الرسول ﷺ في المسجد ٤١
معالم الحياة الإسلامية في المدينة ٤٢
قصة الآذان ٤٢
غزوة بدر ٤٣
أسرى بدر ٤٩
معجزة ٥٠
إجلاء بني قينقاع ٥١
غزوة أُحُد ٥٢
غزوة بني النضير ٥٧
غزوة الخندق أو غزوة الأحزاب ٥٨
وقعة الحديبية ٦٣
نتائج صلح الحديبية ٧٠
مراسلة الملوك والحكام ٧٢
رسالة الرسول ﷺ إلى هرقل ٧٣
غزوة خيبر ٧٧
عمرة القضاء ٧٩
إسلام خالد بن الوليد رضي الله عنه ٨٠
غزوة مؤتة ٨٢
مقدِّمات فتح مكة ٨٥
الزحف إلى مكة ٨٨
غزوة حنين ٩٥
غزوة الطائف ٩٨
قدوم وفد هوازن ١٠٢
وفود وحوادث ١٠٤
تبوك آخر الغزوات ١٠٥
حجُّ أبي بكر رضي الله عنه ١١٢
حجّة الوداع ١١٢
جيش أسامة بن زيد رضي الله عنه ١١٧
مرض الرسول ﷺ ١١٩
من شمائل الرسول ﷺ ١٢٤
نظافته ﷺ ١٢٤
قوَّته ﷺ ١٢٤
أكله ونومه ﷺ ١٢٥
شجاعته ﷺ ١٢٥
وفاؤه ﷺ ١٢٦
زهده وتقشفه ﷺ ١٢٦
تواضعه وبساطته ﷺ ١٢٧
الاستئذان ١٢٨

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذي أرسل محمَّداً رحمةً للعالمين وجعله مثلاً كاملاً للعاملين وأُسوةً حسنةً للمؤمنين، والصَّلاة والسَّلام على هذا النَّبي الرؤوف بالمؤمنين والقائل: «إنَّمَا أَنَا رَحْمَةٌ مُهْدَاةٌ» (١٥ سنن الدارمي، ٩١/١) وعلى آله وصَحْبِه، ومَن تَبِعَهُم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

أمَّا بعد،

فيَسُرُّ جماعة عباد الرحمٰن في لبنان، أن تُقدِّم للشباب الناشىء سيرة سيِّدنا محمَّد ﷺ الكريمة ليَتَدبَّروا عِبرَها، ويتأمَّلوا حِكمَها، إذ هي خَيْرُ درسٍ لمن كان له قلبٌ أو أَلْقَى السَّمْعَ وهو شهيد.

وقد اقتصرنا في هذه السِّيرة، على سَرْدِ أهمِّ الأحداث التي جَرَت منذ ولادته ﷺ وحتى وفاته؛ مستخلصين الدروس القيِّمَة منها.

وليس المقصود من هذا الكتيِّب إبرازُ متانة اللغة، ولا فصاحة الأسلوب، ولا بلاغة العبارة، فلم يترك رسولُ الله ﷺ بجَوامع كَلِمِه لأَحَدٍ من الناس فصاحةً أو بلاغةً؛ بل المقصود منه أن نعرِّف فلذات أكبادنا بنَبِيِّهم ﷺ ليُحِبُّوه، فإذا أَحبُّوه اقْتَدَوا بهَدْيِه، وتأَدَّبوا

بتعاليمه. كلُّ ذلك بأسلوبٍ مبسَّط يفهمُهُ الكبير والصغير، والمتعلِّم وشبه المتعلِّم، فهذا كتيِّبٌ مُوَجَّهٌ لعامَّة المسلمين يحدِّثُ الناس بما يفهمون.

أخي المسلم،

نرجو أن تستمتعَ أنتَ ومَن تُحب بقراءة هذا الكتاب، وتروِّح عن قلبك بمذاكرته.

فهذه سيرةُ الإنسانِ الكامل الذي جَمَعَ كلَّ صفات الجمال والكمال.

هذه سيرةُ الرسول ﷺ الذي بعثَهُ ربُّهُ ﷺ ليُتَمِّمَ مكارمَ الأخلاق،

فمن لا يعرفُ السِّيرةَ النبويَّة، لا يعرفُ محمَّداً رسول **الله** ﷺ.

ومن لا يعرفُ رسولَ **الله** ﷺ لا يعرفُ حقيقةَ الإسلام.

جمعنا **الله** وإيَّاكُم تحت لواء المصطفى ﷺ ونفعنا بما علَّمنا.

والسلام عليكم ورحمة **الله** وبركاته.

جماعة عباد الرحمٰن

مولد محمَّد ﷺ وطفولته

تقع مكة في قلب الجزيرة العربية، وقد كانت قبل الإسلام مركزاً دينياً وتجارياً هامّاً يَحُجُّ إليها الناسُ مِن كلِّ مكان؛ فيطوفون بالكعبة التي بناها سيِّدُنا إبراهيم وإبنُه اسماعيل عليهما السلام ويتزوَّدون بالبضائع المختلفة. حيث يقع بالقُرب مِن الكعبة بئر يُسْقى منه الحجاج، لا يزالُ موجوداً إلى يومنا هذا، وهو «بئر زمزم».

وفي مكة، تزوَّج شابٌّ اسمُه عبدُ **الله** بن عبد المُطَّلِب بفتاةٍ اسمُها آمنة بنت وهب، ولم يَمْضِ على هذا الزواج بضعةَ أشهر (وكانت آمنة قد أصبحت حاملاً) حتى سار عبدُ **الله** في تجارةٍ إلى الشام تاركاً خَلْفَه زوجته الحامل. وفي بعض الطريق مرض عبدُ **الله**، فاتَّجَهَ إلى بعض أقربائه في يَثْرِب، وهناك اشتدَّ عليه مرضُه، فتوفِّيَ ودُفِنَ في يَثْرِب.

حزنت آمنة بنت وهب على زوجها حزناً شديداً، ورأت أنَّ مولودَها سينشأُ يتيماً. وبعد أشهر، وَضَعَت آمنة غلاماً، وكان ذلك يوم الإثنين في الثاني عشر من شهر ربيع الأول، عام الفيل، سنة ٥٧١ ميلادية، وسُمِّيَ الغلامُ «مُحَمَّداً».

وكان من عادة العرب أن يُرسلوا أطفالهم إلى البادية لاسْتِرضاعِهِم وتَعْويدِهم على حياة الصحراء القاسية، فيكونوا أقوى على احتمال شَظَفَ العيش وتقلُّبات الحياة في مستقبل

أيَّامهم. وكانت هناك مُرضِعاتٍ يأْتين منَ البادية لأَخْذِ أولاد أهل المدن لرعايتهم بمقابلٍ يَستَعِنَّ به في حياتهنَّ.

عُرِضَ محمَّد ﷺ على المُرضعات، فَرفَضْنَ أوَّل الأمر، لأنَّ محمَّداً ﷺ يتيم، ورَضِيَت «حليمة السَّعديَّة» أن تأخذَ محمَّداً ﷺ لتُرضِعَه، فألقى الله ﷻ البَرَكَة في لبن حليمة وفي رزقها.

عاش محمَّد ﷺ عند حليمة مدَّة سنتين، وأحسَّت خلالها بالبركة تحيطُ بها، فطلبت مِن أُمِّه أن تُبقِيَه عندها سنَتَيْن أُخرَيَيْن، فقَبِلَت آمِنَة، وبقي محمَّد عند حليمة حتى بلغ الرابعة من عمره.

عاش محمَّد ﷺ عند أُمِّه سنَتَيْنِ يَنعَمُ بحنانها، ولمَّا بلغ السادسة من عمره، ذهب مع أُمِّه آمنة وجدِّه عبد المُطَّلب وجاريتها أُمِّ أَيْمَن إلى يَثْرِب، وتعرَّف على أَخواله بني النَّجَّار، وفي طريق العودة، مرضت آمنة وتوفِّيَت، فدُفِنَت في «الأبواء».

رجع محمَّد ﷺ مع جَدِّه وأُمِّ أَيْمَن إلى مكَّة، وقد أصبح يَتيمَ الأبوَيْنِ، حزيناً، دامعَ العين. فتعهَّد بتربيته جَدُّهُ عبدُ المُطَّلب، فكان يحبُّه ويَحْنو عليه لأنَّه كان يتوسَّم فيه الخير. غير أنَّ كفالة جدِّه له لم تَدُمْ طويلاً، إذ توفِّيَ جدُّهُ وهو في الثامنة من عمره، فكَفِلَهُ عمُّهُ أبو طالب حيث ضمَّه إلى أولاده وأَكرمَهُ غاية الإكرام.

رحلته ﷺ إلى الشَّام مع عمِّه

ولما بلغ محمَّد ﷺ الثانية عشرة من عمره، سافر مع عمِّه أبي

طالب في تجارةٍ إلى الشَّام، وسخَّر **الله** ﷺ له غمامةً تُظلِّله مِن حَرِّ الشمس. فلما وصلوا إلى «بُصْرى»[١]، رآهم هناك راهبٌ يعيش في صَوْمَعَتِه اسمه بُحَيْرا. فدعاهم إلى طعامه قائلاً: «إني وَضَعْتُ لكم طعاماً، وأُحِبُّ أن تَحضُروا كلُّكم: صغيرُكم وكبيرُكم، عَبْدُكم وحُرُّكم».

حضر القوم إلا محمداً ﷺ، فجعل بُحَيْرا ينظر إلى القوم، كأنَّما يبحث عن إنسان يعرفه، ثم قال: «لا يتخلَّفَنَّ أَحَدٌ منكم عن طعامي»، فقالوا: «ما تخلَّفَ عنك أحدٌ ينبغي أن يأتيكَ إلا غلامٌ هو أَحْدَثُ القومِ سِنًّا، تخلَّف في رحالنا».

طلب بُحَيْرا أن يُؤتَى بالغلام. فلمَّا جاءَ، جَعَلَ ينظرُ إليه ويُدقِّقُ النَّظَرَ. ثم أَجلَسَهُ إلى جانبه، ثم قال له: «يا غلام، أَسأَلُكَ باللاَّت والعُزَّى»، فقال محمَّد ﷺ: «لا تسألني باللاَّت والعُزَّى شيئاً، فَوَ**الله** ما أَبغَضتُ شيئاً قطُّ بُغْضي لها». قال بُحَيْرا: «هل تحبُّ العُزلة؟»، فأجاب محمَّد ﷺ: «نعم». قال بُحَيْرا: «هل تتأمَّلُ في السَّماء والنُّجوم؟» فأجاب محمَّد ﷺ: «نعم». قال بُحَيْرا: «هل ترى في منامك رُؤىً تَصدُقُ في يقظتك؟» فأجاب محمَّد ﷺ: «نعم».

ثم توجَّه إلى أبي طالب قائلاً: «أَخبِرني يا أبا طالب، ما هذا الغلام منك؟». قال أبو طالب وقد خاف عليه: «هو ابني». فقال بُحَيْرا: «ما هو ابنُكَ، وما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أَبوهُ حيًّا». قال أبو طالب: «إنه ابن أخي». قال بُحَيْرا: «وما فعل أبوه؟»

---

(١) من أرض الشام.

قال أبو طالب: «مات وأُمُّه حُبلى به». قال بُحَيْرا: «ارجِعْ بابن أخيك إلى بلده، واحْذَرْ عليه من اليهود، فوالله لئِن رأَوْهُ وعرفوا ما عَرَفْتُ ليَبْغُنَّ شراً، فإنَّ لابنِ أخيكَ هذا شأنٌ عظيمٌ نَجِدُهُ في كُتُبِنا، وما رَوَيْناه عن آبائنا».

استمع أبو طالب إلى الراهب في عَجَبٍ، ثم بعث محمداً ﷺ مع بعض غلمانه إلى مكة.

من صفات محمَّد ﷺ

كان لمحمد ﷺ سَمْتٌ حَسَن وخُلُقٌ كريم، يتميَّز به عن أصحابه، اشتهر بالصِّدق والأَمانة؛ فأَحبَّه الناسُ جميعاً حتى لقَّبوه بـ «الأمين». لم يَسجُدْ لصنم، ولم يَحلِف به ولم يَقْتَرِف مَعْصِيَةَ؛ فقد هيَّأَه ربُّه لحَمْلِ أكبر رسالةٍ عرفها تاريخ البشرية فأدَّبه وأَحسنَ تأديبَه.

تربَّى على خُشونة العيش في الصحراء القاسية، وتعلَّم لغة العرب المُصفَّاة، قال عن نفسه ﷺ: «أَنا أَعْرَبُكُمْ(١) أَنا قُرَشِيٌّ، واسْتُرْضِعْتُ في بَني سَعْدِ بنِ بَكْرٍ» (سيرة ابن هشام).

عاش ﷺ يتيماً منذ ولادته ليتولَّى ربُّهُ تربيتَهُ بنفسه، وليُجَنِّبَه الإعتماد على الوالدَيْن في جميع شؤونه، وليَجْعلَه يدير أُمورَهُ بنفسه؛ فاليتيم يبلغ مبلغ الرجال قبل غيره من الأولاد، واليتيم

---

(١) أَعْرَبُكُم: أَفصَحُ مَن نَطقَ الضَّاد.

يُحِسُّ بآلام اليتامى فيُشاركهم شعورهم في حياتهم.

قال ﷺ: «أَنا وكَافِلُ اليتيمِ في الجَنَّةِ كَهاتَيْنِ»، وأَشارَ بأَصْبُعَيْهِ يَعْني السَّبَّابَةَ والوُسْطَى. (سنن الترمذي، ١٩١٨/٤/٣٢١). عاشَ ﷺ عيشةَ الفقراء، قليلَ المال، وتعوّدَ السَّعْيَ مِن أجل الرزق الحلال.

رعى الغنمَ لأهل مكة، وكان يتقاضى على ذلك أجراً. ووصفه ربُّه ﷺ في القرآن الكريم: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١﴾ [سورة الضحى].

وكان محمَّد ﷺ من عامَّة الشعب وليس من مُتْرَفيهم، فكان يُحسُّ أَحاسيس النَّاس ويتفهَّم مشكلاتهم.

حلف الفضول

لمَّا بلغ محمَّد ﷺ السادسة عشرة من عمره، حدثت حادثة في مكة تأثَّر بها كثيراً، وذلك أنَّ تاجراً من أهل اليمن باع بضاعته لرجل من قريش اسمُه العاص بن وائل، فأكلَ عليه ثمنها. فما كان من التاجر اليَمَني إلا أن رفع ظلامتَهُ لقريش، فلمَّا سَمِعَها بنو هاشم دبَّت فيهم روحُ النَّجدة، فاتفقوا على أن يقفوا إلى جانب كلِّ مظلوم.

فذهبوا إلى العاص بن وائل، وأَجْبَروه على دفع حقِّ التاجر. وقد

سُمِّي هذا الإتفاق لنُصْرَةِ المظلوم بحِلْفِ الفُضُول. وقد ذكر محمَّد ﷺ هذا الحلف بقوله: «لقد شهدْتُ في دارِ عبدِ الله بن جِدْعان حِلْفاً ما أُحِبُّ أنَّ لي به حُمْرَ النِّعَم[١]. ولو أُدعى به في الإسلام لأَجَبْتُ»

(السنن الكبرى للبيهقي، ٦/٣٦٧).

وكان الرسول ﷺ قد ذكر ذلك الحلف ليُعَلِّمَنا أن نُصْرَةَ الضَّعيف وإغاثَةَ الملهوف ينبغي أن تكون أَحَبَّ الأَعمال إلى نَفْسِ المسلمِ الصَّادق.

زواجه ﷺ من خديجة رضي الله عنها

عندما أصبح محمَّد ﷺ شاباً، أَرسلَت في طَلبِهِ سيِّدةٌ اسمُها خديجة بنت خُوَيْلِد ليَقوم بتجارةٍ لها إلى الشام. وكانت قد سَمِعَت بصدقه وأمانته.

قام محمَّد ﷺ بالمهمَّة المطلوبة منه بصدق وأمانة، وكان يَصحَبُهُ في الرحلة خادمٌ اسمه مَيْسَرَة، فربحت التجارة ربحاً عظيماً. وعندما رجعت القافلة، أخبر مَيْسَرَة سيِّدَتَه خديجة بصدقِ محمَّد وأمانته، فأُعجِبَت بما سَمِعَت عنه. ثمَّ تزوَّج محمَّد ﷺ خديجة وهو في الخامسة والعشرين من عمره وهي في الأربعين. فكانت له خير زوج، أَسعدَتْهُ بكرم أخلاقها وطيب معشرها، وأَغْنَتْهُ بوفير مالها وكريم تضحيتها.

---

(١) حُمْرُ النِّعَم: الإبل الحمراء، وهي أَنْفَسُ أموالُ العرب يومئذ. ومعنى الحديث: أنَّ شهودي هذا الحلف أحبُّ إليَّ من نفيس الأموال.

أنجبت له من الأولاد : القاسم، وعبدُالله، وزينب، ورقيَّة، وأُمُّ كلثوم، وأخيراً فاطمة الزهراء زوجة ابن عمه علي بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين.

لم يَعِشْ مِن أولاد محمَّد ﷺ من الذكور أحدٌ، فقد ماتوا صغاراً. أما بناتُه فقد تُوَفَّيْنَ في حياته بعد زواجهن، إلا فاطمة فإنَّها عاشَت بعدَهُ ستَّة شهور.

بناء الكعبة

تصدَّعَت جدران الكعبة من السُّيول الناتجة عن المطر، وكان قد مَرَّ على بنائها قرون، فقد بناها سيِّدُنا إبراهيم وابنه اسماعيل عَلَيْهِمَا السَّلَامُ. وقرَّرت قريش إعادةَ بناء جدرانها من جديد، والإنفاقَ على البناء من أموالهم الحلال.

وكان من بين أحجار الكعبة حجرٌ له أهميَّةٌ خاصةٌ عند جميع العرب هو «الحجر الأسود». وكان العرب يعتبرون أن وَضْعَ «الحجر الأسود» في مكانه في بناء الكعبة شَرَفٌ عظيم لمن يقوم به.

اختلفوا عند البناء فيمن يضع الحجر في مكانه، واشتدَّ الخلاف، وكادوا يقتتلون، ثم اتفقوا على أن يَحْكُم بينهم أوَّلُ داخِلٍ عليهم من باب المسجد.

كان أوَّلُ الداخلين محمَّد ﷺ. فقالوا : « هذا هو الصَّادقُ الأمين رضينا به حَكَماً ». عرضوا عليه الأَمرَ، فطلب ثَوْباً، فوَضَعَ الحجرَ

وَسَطِه، وأمر سيِّدَ كلِّ قبيلةٍ أن يرفَعَ جانباً من الثوب، فلمَّا ارتفع على مساواة الجدار ركَّزَهُ بيديه، فاستقرَّ مكانَه. وهكذا أَبْعَدَ محمَّد ﷺ شبح الحرب وسَفْكِ الدماء عن القبائل.

بدء نزول الوحي

كان محمَّد ﷺ قبل النبوَّة يحبُّ الخَلْوَةَ والبُعْدَ عن الناس، فكان يصعدُ إلى جبلٍ بمكة في قمَّته غارٌ يُدعى: غار حراء، ويمكث في الغار ليالِيَ وأياماً يتأمَّل ويفكِّر، وكان يتزوَّد لذلك. فإذا نفدَ زادُهُ عاد إلى بيته فأخذَ زاداً جديداً ورجع.

وبينما هو في الغار ذاتَ ليلة، إذا بالرُّوح الأمين جبريل ينزل عليه، وكان ذلك في شهر رمضان. أخذَه جبريل عليه السلام وضمَّه إلى صدره ضمَّةً شديدةً ثم ترَكَه، وقال له: «إقرأ». فأجابه ﷺ: «ما أنا بقارئ». فأخذه جبريلُ مرَّةً ثانية وأعاد عليه القول، فأعادَ الجواب نفسه، وفي المرة الثالثة قال جبريل عليه السلام: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ ﴾ [سورة العلق]. فقرأها النبي ﷺ ثم انصرف عنه جبريل عليه السلام.

خاف رسول **الله** ﷺ من زيارة جبريل المفاجئة، فنزل من الجبل خائفاً يقول لزوجته خديجة: «دَثِّروني زَمِّلُوني». فوضعت خديجة عليه الدِّثار، وطلبت منه أن يُخبرَها عن أمره، فأَخْبَرَها وقال: «رأيتُ

اليومَ مَلَكاً هبطَ عليَّ فكلَّمَني، وسمعتُ صوتَه ، **والله** لَقَدْ خَشِيتُ على نَفْسي، فَقَالَتْ خَديجَة: « كَلَّا **والله** ما يُخْزيك **الله** أبدًا إنَّك لَتَصِلُ الرَّحِمَ وتَحْمِلُ الكَلَّ وتَكْسِبُ المَعْدُومَ وتَقْري الضَّيْفَ وتُعينُ على نَوائِبِ الحَقِّ[(١)]» (٣ صحيح البخاري، ١/٤). لقد وصفته بالمكارم التي انطَبَعَتْ عليها نفسه بما فيها من فضائلَ وكَمَالات لا توجد في أي إنسانٍ يعيشُ في مجتمع جاهلي. والزوجةُ أَعْرَفُ الناس بخبايا زوجها وما تنطوي عليه نَفْسُه مِن خيرٍ أو شر؛ فلو أنَّها رأت فيه عَيْباً ـ ولو بسيطاً ـ لاستَنْكَرَت ما جاءَها به مِن خَبَرِ الوَحْي. ولو أنَّ رجلاً عادياً قال لامرأته هذا الكلام لأَجابَتْه: « هذه دعوى يا عزيزي بحاجة إلى بيِّنة، ألا تَذْكُرُ يومَ أَخْلَفْت وَعْدَك مع فلان، ونَهرتَ المسكين فلان، وكَذَبْتَ على فلان، إنَّ الكلامَ الذي تُحدِّثُني به يحتاج إلى بيِّنة».

أَخَذَت خديجة بِيَدِ زوجِها محمَّد ﷺ ، وانْطَلَقَت به إلى ابن عمِّها وَرَقَة بن نَوْفَل، وكان عالماً مُسِنّاً قد تنصَّر مِن قَبْلُ، كارهاً ما عليه قومُه من عبادةٍ للأصنام، فقالت له خديجة: « يا ابنَ عمٍّ، اسْمَع مِن ابنِ أخيك »، فأَخْبَرَهُ ﷺ بما رأى.

فقال له ورقة: «هذا النَّاموسُ[(٢)] الذي أَنزلَ **الله** على موسى، لَيْتَني أكون حيّاً ». فقال محمَّد ﷺ متعجِّباً: « أَوَ مُخْرِجِيَّ هُم ؟ »،

---

(١) نوائب الحق: أي مصائب الناس.

(٢) سُمِّيَ جبريل عليه السلام ناموساً، لأنه مخصوصٌ بالوحي والغَيْب الذي لا يطَّلِعُ عليهما أحدٌ من الملائكة سواه.

قال ورقة: «نعم، لم يأْتِ رجلٌ بما جئتَ به إلاَّ أُوذِيَ، وإن يُدْرِكْني يومُك حيًّا أَنْصُرْك نَصْراً مُؤزَّراً» (صحيح البخاري، ٤/٤٦٧٠، ٤٩٨١).

ثم لم يلبث ورقة أن تُوُفِّيَ وفَتَرَ الوحي.

تنبَّه محمَّد ﷺ إلى أنَّ تبليغ الرسالة إلى الناس ليس بالأمر الهيِّن، بل يحتاج إلى جُهْدٍ وتَعَبٍ كبيرين.

بدء الدعوة

بعد مدَّة من لقاء جبريل ومحمَّدعليهما السلام نَزَل على النبي ﷺ قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝٧ ﴾ [سورة المدثر].

بدأَ رسولُ الله ﷺ بتنفيذ أَمْرِ الله عزَّ وجلَّ. فدعا إلى الإسلام أقرَبَ النَّاس إليه وهم: زوجتُه السيدة خديجة، وابن عمِّه عليُّ بن أبي طالب -وكان صبياً يعيش في كفالته-، وصديقه الحميم أبو بكر الصديق؛ فأَسلمَ هؤلاء في أوَّل يومٍ مِن أيام الدعوة.

ثم نَشِطَ أبو بكر فأخذ يدعو مَن يثقُ به مِن قومه؛ فأَسلَمَ عثمان بن عفَّان، والزُّبَيْر بن العوَّام، وعبدُ الرحمٰن بن عوف، وسعدُ بن أبي وقَّاص، وطلحة بن عُبَيْدالله رضي الله عنهم.

وبقيت الدعوة إلى الاسلام سراً مدة ثلاث سنوات، حتى أنزل الله عزَّ وجلَّ قولَه: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ۝٢١٤ ﴾ [سورة الشعراء].

فاستجاب النبيُّ ﷺ لربِّه عزَّ وجلَّ ووَقَف على الصَّفا ونادى في

قومه، فلما تجمَّعوا، قال لهم قوله المشهور: «أَرَأَيْتَكُمْ لَو أَخْبَرْتُكُم أَنَّ خَيلاً بالوادي تُرِيدُ أَن تُغِيرَ عَلَيْكم أَكُنْتُم مُصَدِّقِيَّ؟ قَالوا: نَعَمْ ما جَرَّبْنا عَلَيْك إلاَّ صِدْقًا. قَالَ: فَإِنِّي نَذيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذابٍ شَديد» (٤٤٩٢ صحيح البخاري، ٤/١٧٨٧). وكان بين الحاضرين عمُّهُ أبو لهب، وكان مُستَكبِراً، فقال له: «تبًّا لَك، أَلِهَذا دَعَوْتَنا؟». فأنزل الله تعالى قوله: ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ ١ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ٢ سَيَصۡلَىٰ نَارٗا ذَاتَ لَهَبٖ ٣ وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ ٤ فِي جِيدِهَا حَبۡلٞ مِّن مَّسَدِۭ ٥﴾ [سورة المسد].

وقد ذكر الله ﷻ زوجةَ أبي لهب في سورة المَسَد لأنَّها كانت شرِّيرة على شاكلة زوجها، وكانت تُـؤْذي رسول الله ﷺ بيدِها ولسانها.

تعذيب المسلمين

لاقى المسلمون الأوّلون العذابَ الشَّديدَ مِن أهليهم؛ فمنهم من كان يُرْبَطُ إلى السَّقْف ويُشْعَلُ تحته الحَطَب فيكاد يخْنقُهُ الدُّخان ويَنتابُهُ السُّعال ومع ذلك يظلُّ على إيمانه ولا يرجِعُ إلى عبادة الأصنام، ومنهم مَن كان يُقيَّد بالحبال ويُضْربُ بالسِّياطِ فلا يتزَحْزَحُ عن دينه.

ـ وكان مُصْعَب بن عُمَيْر رضي الله عنه فتى اعتادَ حياةَ الرَّفاهيَّة؛ كان يلبسُ الحرير مِن ثيابه ويتحلَّى بالذهب؛ فلمَّا أَسلَمَ، أَلبَسَهُ أهلُهُ أخْشَنَ

الثياب، وقيَّدوه بالأوتاد، وحرموه من الطعام إلا كِسْرَةً منَ الخبز، فما أثَّر الحرمانُ على إيمانه.

ـ أما بلال رضي الله عنه فقد كان يُعرَّى مِن ثيابه ويُطرحُ على الرمال المُلْتَهِبَة تحت الشَّمس المُحْرقة، وتُوضَعُ الصخرة على صدره فلا يزالُ يردِّد: «أَحَدٌ، أَحَد».

ـ وأَسلَمَ سعدُ بنُ أبي وقَّاص رضي الله عنه، فخاصَمَتْه أُمُّه، وحَلَفَت ألاَّ تأكُلَ حتى يرجعَ سعدُ إلى عبادة الأصنام، وظلَّت ثلاثةَ أيام. فقال لها سعد: «والله، لو بَقيتِ إلى المَمَات لا تأكُلينَ، ما رَجِعْتُ عن عبادةِ الله». فلمَّا أيقنت أنه لن يرجع، أَكَلَت، وأَمَرَت بحَبْسِه، فكان يُضْرَبُ كل يومٍ حتى هَرَبَ محروماً من غِنَى أهله.

ـ وأَسلَمَ عمَّارُ بن ياسر رضي الله عنه ودعا أباهُ ياسراً فأَسلَمَ، وأَسلَمَت أُمُّه سميَّة؛ فكانوا يُعذَّبون بالسِّياط، وتُغَطَّس وجوهُهُم في المياه حتى يُشرفوا على الموت، ولكنهم ظلُّوا على دينِهِم. وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يمرُّ بهم ويقول: «صَبْراً يا آل ياسر فإنَّ مَوْعِدَكُم الجنَّة» (٥٦٤٦ رواه الحاكم، ٣/٤٣٢). وطَعَنَ أبو جهلٍ سُميَّةَ بحَرْبَة فقَتَلَها، فكانت أوَّل شهيدٍ في الإسلام.

ـ وأَسلَمَ خَبَّابُ بنُ الأَرَتِّ رضي الله عنه، وكان يعملُ بالحدادة، فكانت سيِّدَتُه أُم أَنْمار تضعُ الحديدةَ في النارِ حتى تَحمَرَّ، ثم تَكوي بها جِسْمَه. وكان المشركون يُذيقُونَه مِن ألوان العذاب، وأَضْجَعوه

مراتٍ عديدة على فَحْمٍ مُلتَهِب، فلا يتَزَحْزَحُ عن الإيمان بالله حتى نجَّاه الله.

هؤلاء الرجال الذين آمنوا بالله حقَّ الإيمان، لم يتأثَّروا بالعذاب في أَجسامِهم إنما صَبَروا في سبيل الله، أولئك هُمُ السَّابقون. قال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ١١ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ١٢﴾ [سورة الواقعة].

الهجرة إلى الحبشة

تلقَّى المسلمون العذابَ والاضطهاد بصبر، إذ كلَّما أَمْعَنَ المشركون في تعذيبهم واضطهادهم، ازدادوا تمسُّكاً بدينهم وإيماناً مع إيمانهم. وهذا يفيدُ أَنَّ كلَّ دعوةٍ قد تتعرَّضُ لأن تَمُرَّ بمرحلة الإبتلاء والإمتحان، قبل أن يتمَّ لها النَّصرُ الأخير المُظَفَّر.

ولما ازداد أذى قريش، أشار النبي ﷺ على أصحابه بأن يهاجروا إلى الحبشة قائلاً لهم: «إنَّ بها مَلِكاً لا يُظْلَمُ عنده أحد، وهي أرض صِدْقٍ حتى يجعل الله لكم فرجاً» (سنن البيهقي الكبرى، ٩/٩)، فهاجر عددٌ من المسلمين إلى الحبشة على دفعتَيْن:

ـ الأولى أثنا عَشَر رجلاً وأربع نساء.

ـ والثانية ثلاث وثمانون رجلاً غير نسائهم وأطفالهم.

حاولت قريش أن تُلحق الأذى بمن هاجروا إلى الحبشة محاولةً استرجاعَهُم لتعذيبهم من جديد؛ فأَرسَلَت رجُلَيْنِ مِن أكبر دُهاتِها

هما: عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة ـ قبل أن يُسْلِما ـ وزوَّدتهما بالهدايا للنَّجاشي وبطارِقَتِهِ ليطردوا المسلمين من بلادهم.

قدَّم الوفد الهدايا إلى النجاشي وبطارِقَتِه، وقال عمرو بن العاص للملك: «أيُّها المَلِكُ، قد أَوَى إلى بلدِكَ منَّا غِلْمَانٌ سُفَهاء، فارَقُوا دينَ قومِهِم ولم يدخلوا في دينك، وجاؤوا بدينٍ ابتدعوه، لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بَعَثَنا إليك أَشراف قَومِهِم من آبائهم وأَعمامهم لتردَّهُم».

كان النَّجاشيُّ عاقلاً حكيماً لا يبني الحُكْم على الظَّنِّ، فأحبَّ أن يسمعَ بنفسه مِن هؤلاء الذين لجأوا إلى بلاده تاركين أهلَهُم وأوطانَهُم فارِّينَ بدينهم مِن قومهم. فأرسلَ إليهم، وسأَلَهم عن هذا الدِّين الذي دخلوا فيه.

تكلَّم عن المسلمين جعفرُ بن أبي طالب ـ ابن عم النبي ﷺ ـ فقال: «أَيُّها المَلِكُ، كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّة، نَعْبُدُ الأَصْنامَ ونَأْكُلُ المَيْتَةَ ونَأْتي الفَواحِشَ ونَقْطَعُ الأَرْحَامَ ونُسيئُ الجِوارَ، يَأْكُلُ القَوِيُّ مِنَّا الضَّعيفَ. فَكُنَّا على ذلك حَتَّى بَعَثَ الله إِلَينَا رَسُولاً مِنَّا نَعرِفُ نَسَبَهُ وصِدْقَهُ وأَمانَتَهُ وعَفافَه؛ فَدَعانا إلى الله لِنُوَحِّدَهُ ونَعْبُدَهُ ونَخْلَعَ مَا كُنَّا نَحْنُ نَعْبُدُ وآبَاؤُنَا مِن دُونِهِ مِن الحِجارَةِ والأَوْثان، وأَمَرَ بصِدْقِ الحَديثِ وأَداءِ الأَمانَةِ وصِلَةِ الرَّحِمِ وحُسْنِ الجِوارِ والكَفِّ

عَن المَحارِمِ والدِّماء، ونَهانا عَن الفَواحِشِ وقَوْلِ الزُّورِ وأكْلِ مَالِ اليَتيمِ وقَذْفِ المُحْصَنَة، وأَمَرَنا أَن نَعْبُدَ الله وَحْدَهُ لا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً. فَعَدا علينا قومُنا فعذَّبونا، لِيَرُدُّونا إلى عبادةِ الأوثان مِن عبادةِ الله، فلمَّا قَهرونا وظَلمُونا خَرَجْنا إلى بلادك، واخترناك على مَن سِواكَ، ورَجَوْنا أن لا نُظْلَمَ عندَكَ أَيُّها المَلِك» (مسند أحمد، ١/٢٠١ ١٧٣٩)

طلب النَّجاشي من جعفر أن يَتْلُوَ عليه بعضَ التعاليم التي جاءَ بها محمَّد ﷺ، فقرأ عليه آياتٍ من سورة مريم.

سمع النَّجاشيُّ آياتَ القرآن فبكى خُشوعاً، وسُرَّ بهذا الدِّين الذي يُثْنِي على المسيح عليه السلام وأُمِّه الصِّدِّيقَة البتول.

أخيراً قال النَّجاشيُّ: «إنَّ هذا والذي جاء به عيسى ليَخرُجُ من مِشْكَاةٍ واحدة»[(١)]. عندها رفضَ النَّجاشيُّ إعادةَ المسلمين إلى قريش ورحَّبَ بهم ليعيشوا في الحَبَشَةِ آمنين.

إسلام حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه

كان حمزةُ عَمَّ الرسول ﷺ وأَخاهُ من الرضاعة، يذهبُ إلى الصَّيْدِ، فإذا رَجِع، طافَ بالكعبة متوشِّحاً قَوْسَه.

بعد أن طافَ بالكعبة ذاتَ يوم، اعترضَت طريقَهُ امرأةٌ، وقالت له: «يا أبا عمارة، لو رأيت ما لَقِيَ ابنُ أخيك مِن أبي جَهْلٍ وأصحابِه، رأَوْهُ ها هنا الساعة، فآذَوْهُ وسَبُّوه، وبلغوا منه ما يَكْرَه، ثمَّ انصرفَ عنهم

---

(١) يعني أنَّ تعاليم المسيح عليه السلام وما جاءَ به محمَّد ﷺ يأتيان مِن مَصْدَرٍ واحد.

ولم يكلِّمهم». قال حمزة غاضباً: «أَفَعلوا به هذا وأنا عمُّه؟»، ثم اتجه إلى الجماعة وقال: «يا أبا جهل، ماذا لَقِيَ ابنُ أخي منك؟». فأجاب أبو جهل: «إنَّك لغَاضِبٌ؟» قال حمزة: «تَشْتُمُه؟» قال أبو جهل: «وما يَعْنيك مِن أَمرِه؟» فصاح حمزة: «ما يعنيني مِن أَمرِه؟ أنا على دينِهِ أَقولُ ما يقول، رُدَّ عليَّ إن استَطَعْتَ»، (ورَفَعَ قَوْسَهُ وضربَ بها أبا جهلٍ فشجَّهُ شجَّةً كبيرة).

قام القوم لنُصْرَةِ أبي جهل، فقال لهم: «دَعُوا أبا عمارة، فإنَّا واللاَّت قد سَبَبْنا ابنَ أخيه سبّاً قبيحاً».

قال بعضُ القومِ لحَمْزَة: «يا أبا عمارة، أَتَتْرُكُ دينَ آبائك؟».

قال حمزة: «وما يمنَعُني وقد اسْتَبان لي منه ما أَشهَدُ أنَّه رسولُ الله وأنَّ الذي يقولُ حَقٌّ؟ فَوَالله لن أَترُكَ دينَهُ، فامْنَعوني إن كنتم صادقين». وذهب حمزةُ إلى الرسول ﷺ يُعْلِنُ إسلامَه.

إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه

كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه رجلاً شجاعاً، ساءَهُ تفرُّق قريش واختلافُها من أجل هذا الدين الجديد، فقَصَدَ إلى قَتْلِ مَن كان السَّبَبَ في هذه التَّفْرِقَة، واتَّجَهَ إلى دار الأَرْقَمِ حيث كان يَستَخْفي المسلمون باجتماعاتهم، فلَقِيَهُ في الطريق رجلٌ اسمُهُ نُعَيْم وكان يكتُمُ إسلامَه. فسأله: «إلى أين يا ابنَ الخطّاب؟» قال عمر: «إلى هذا الذي عابَ آلهَتَنا وفرَّقَ جماعَتَنا». قال له نُعَيْم: «واللهِ لقد غرَّتْك

نَفْسُكَ يا عمر؛ أترى بني عَبْدِ مَناف تاركيكَ تمشي على الأرض إن قَتَلْتَ محمداً؟» وأَخبَرَهُ أنَّ أُختَهُ فاطمة وصِهْرَهُ سعيد بن زيد قد أَسْلَما وتَبِعا محمَّداً ﷺ. فغضب عمر لهذا الخبر وتحوَّلَ عن دار الأَرْقَم إلى دار أُخته. فلمَّا وَصَلَ طَرَقَ سَمْعُهُ قراءَةَ آياتٍ من القرآن الكريم. فأَنْصَتَ قليلاً ثم دَقَّ الباب بعنف. فَتَحَت أُختُه له الباب بعد أن خبَّأَت الصحيفةَ وقارئَها خبَّابَ بن الأَرَتِّ.

قال عمر: «ما هذه الهَيْنَمَةُ التي سَمِعْتُها عندَكُم؟» فأنكرت فاطمة وزوجُها، فلم يصدِّق عمر وهَجَمَ على صهره فأَوْقَعَهُ أرضاً، فجاءَت أُختُه لتُدافِع عن زوجها، فلطَمَها لطْمَةً شجَّها بها فأَدْماها، عندئذ انْفَجَرَت أُختُه وصاحَت قائلَةً: «يا عمر! أَرَأَيْتَ إن كان الحقُّ في غيرِ دينِكَ، أشهدُ أن لا إله إلا **الله** وأشهدُ أنَّ محمَّداً رسول **الله**».

وقف عمر ينظر إلى أُخته والدَّمُ يسيل من وجهها وصِهْرُهُ مُلقى على الأرض، وكأَنَّه نَدِمَ على فِعْلَتِه، فأَخذَتْه رِقَّةٌ لِمَا رأى وطلب الصحيفة ليقرأها، فقالت له: «قُمْ فاغْتَسِل». فقام فاغتسل، ثم أخذ الكتاب فقرأ سورة «طه» حتى وصل إلى الآية ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ١٤﴾. فدخل الاسلامُ شِغافَ قلبه فإذا به يتحوَّلُ من جبَّار طاغية إلى حَمَلٍ وديع، ثم قال: «ما أَحسنَ هذا الكلامَ وأَكْرَمَه، أَمِنْ هذا فَرَّتْ قريش؟» فأجابته أُخته قائلَةً: «وَفَرَّ عُمَرُ أيضاً». فقال حينئذ: «**والله**ِ، لستُ بفارٍّ بعد اليوم. دلُّوني على محمَّد». اعتذر عمر

لصهره وأُخته على ما بَدَرَ منه، ثم انطلق إلى دار الأَرْقَم، فلما طرقَ البابَ وعَلِمَ المسلمون به، خافوا على النَّبي ﷺ، إلاَّ أنَّ حمزةَ ﵁ طمأَنَهُم قائلاً: «افتحوا له البابَ، فإن كان جاءَ يريدُ خيراً بَذَلْناهُ له، وإن كان جاءَ يريدُ شراً قَتَلْناهُ بسيفه». فدخل عمر.

استقبلَهُ رسولُ الله ﷺ، وقال له: «أَما آنَ لكَ أن تُسْلِمَ يا ابن الخطاب قبل أن تَحِلَّ بك قارِعَة؟» قال عمر: «يا رسولَ الله، جِئْتُك لأُؤْمِنَ بالله ورسولِه». فكبَّر رسولُ الله ﷺ تكبيرةً عَرَفَ منها الصحابةُ أنَّ عُمَرَ قد أَسْلَم.

كان المسلمون قَبْلَ إسلامِ عمر يَسْتَخْفُون في عبادتهم، فلم يَرْضَ عمر أن يبقى المسلمون مُسْتَخْفين في صلواتهم؛ فطلبَ منَ الرسول ﷺ أن يخرجوا إلى الكعبة في صفَّيْن يتقدَّمُ أحدَهما عمر، ويتقدَّمُ الآخرَ حمزةُ بن عبدالمطلب. فلمَّا رآهم المشركون اكفهرَّت وجوهُهُم.

رسول قريش إلى النبي ﷺ

عندما رأت قريش ثَباتَ النبي ﷺ وإصرارَهُ على تبليغ رسالته مهما كلَّف الأمر، عَمَدَت إلى المفاوضة الرصينة الهادئة. فأرسلوا إليه رسولهم عُتْبَة بن ربيعة يفاوضه بجانب الكعبة؛ فقال له:

«يا ابنَ أَخي، إنَّك مِنَّا حَيْثُ قد عَلِمتَ مِنَ السِّطَةِ(١) في العَشيرَةِ والمَكانِ في النَّسَب، وإنَّك قَدْ أَتَيْتَ قَوْمَك بأَمْرٍ عَظيمٍ فَرَّقْتَ بِه

(١) السِّطَة: المنزلة العالية.

جَماعَتَهُم وسَفَّهْت به أَحْلَامَهُم وعِبْت به آلِهَتَهُم ودينَهُم... فَاسْمَعْ مِنِّي أَعْرِضُ عَلَيْك أُموراً تَنْظُرُ فيها لَعَلَّك تَقْبَلُ منها بعضها».

فَقالَ لَهُ رَسولُ الله ﷺ: «قُلْ يا أَبا الوَليد، أَسْمَعُ».

قَال: «يا ابنَ أخي، إن كُنْت إنّما تُريدُ بما جِئْت بِهِ مِن هذا الأَمر مَالًا، جَمَعْنا لَك مِنْ أَموالِنا، حتّى تكونَ أَكْثَرَنا مالًا، وإن كُنْت تُريدُ به شَرَفًا سَوّدْنَاك علينا حتّى لا نَقْطَعَ أَمْرًا دونَك، وإن كُنْتَ تُريدُ به مُلْكًا مَلَّكْنَاك علينا، وإنْ كانَ هذا الذي يَأْتيك رَئِيًّا تَراهُ لا تَسْتَطيعُ رَدَّهُ عَن نَفْسِك طَلَبْنَا لَكَ الطِّبَّ وبَذَلْنَا فيه أَموالَنا حَتَّى نُبْرِئَك منه».

لمَّا فَرَغَ عُتْبَة من عَرْضِ هذه الشروط المُغْرية، قال عليه الصلاة والسلام: «أَقَدْ فَرَغْت يا أَبا الوَليد؟» قَال: «نعَمْ». قَال ﷺ: «فَاسْمَعْ منِّي»، ثم قرأ عليه أوائل سورة «فُصِّلَت» حتى انتهى إلى الآية: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ١٣﴾، وكان هذا هو الجواب. والمعنى أن لا ثَمرَة تُرتَجى من المفاوضة في دين الله، ولا ينفعُ معي إغراءٌ ولا تهديد.

بعد هذه المحاولة اليائسة لم تجد قريش بُدّاً من إيذاء النبي ﷺ وصَحْبِه لعلّه يكفُّ عن ازعاجِها بدينِه الجديد ولعلّ أصحابَهُ يعودون إلى الوثنية. فأخذوا يضربون المسلمين ويضطهدونهم.

مقاطعة بني هاشم

رأت قريش إسلامَ عُمَرَ وعودة المسلمين من الحبشة، فخافت من استفحال أمر هذا الدين؛ فكتبوا كتاباً يَتَعاقَدون فيه على مقاطعة

بني هاشم عشيرة رسولِ **الله** ﷺ فلا يَبيعُونَهُم شيئاً ولا يبتاعون منهم، ولا يتزوَّجون منهم ولا يزوِّجُونَهم، حتى يُسَلِّموا رسول **الله** ﷺ للقَتْل، وعلَّقوا هذه الصحيفة في جَوْفِ الكعبة، وقد حُوصِرَ المسلمون حصاراً مُرّاً دامَ ثلاثين شهراً، جاعوا فيه جُوعاً شديداً، حتى أُنْهِكت قُواهُم، إلى أن قَيَّض **الله** تعالى للمسلمين مَن يقومَ بنَقْضِ الصحيفة الظالمة، إذ دَبَّت المُروءَةُ في نُفوس بعضِ رجالِ قريش بعد هذا الحرمان المرير الطويل؛ فاتَّفَق خمسةُ رجالٍ من قريش على نَقْضِ الصحيفة، فتوجَّهوا إلى الكعبة وطافَ أَحدُهم وهو زهير بن أُميَّة بالكعبة سَبْعاً أمام قريش، ثم نادى بأعلى صوته: «يا أَهْلَ مكَّة، أَنأكُلُ الطعام ونَلْبَسُ الثياب، وبنو هاشم هَلْكى؟ **والله**، لا أَقعُدُ حتى تُشَقَّ هذه الصحيفةُ القاطِعَةُ الظَّالِمَة».

فصاح أبو جهل: «كَذَبْتَ، **واللَّه** لا تُشَق»، فانبرى المُتَّفِقون الآخرون -وعَدَدُهم أربعة- يصيحُ واحدُهم بعد الآخر يُؤَيِّدُ زُهَيْراً ويُكَذِّب أبا جهل، ويحتجُّ على هذا الظُّلم.

بُهِتَ أبوجهل من هذه الأقوال الحازمة، وانتبه إلى هذا الكَيْدِ المُدبَّر، فقال: «هذا أَمْرٌ دُبِّرَ بلَيْلٍ»، ولكنه لم يستطع أن يقفَ في وجه القوم، فسَكَتَ على مضضٍ. فقام المُطعِمُ بن عَدِي إلى الصحيفة، فوجد الأَرَضَةَ(١) قد أَكَلَتها إلا فاتِحَتَها (باسْمِكَ اللَّهُمَّ) وما فيه اسمُ **الله** تعالى، وبهذا انتهى البؤس والحرمان الذي أَضْنى المسلمين

(١) الأرضة: العث.

ثلاثَ سنوات.

وقد أخبر النبي ﷺ عمَّهُ أبا طالب بهذا الأمر قبل هذه الحادثة قائلاً: «يا عَمِّ، إنَّ رَبِّيَ الله قَدْ سَلَّطَ الأَرَضَةَ على صَحيفَةِ قُرَيْشٍ، فَلَمْ تَدَعْ فيها اسْمًا هُوَ للهِ إلاَّ أَثْبَتَتْهُ فيها»، فكانت هذه معجزةٌ للنبي ﷺ.

كان صاحبُ فكرةِ شَقِّ الصَّحيفَةَ رجلاً اسمُهُ هشامُ بنُ عَمْرو. وكان لشِدَّة رأفَتِه ببني هاشم يحملُ لهم الأرزاقَ أيامَ المُقاطَعَة على بعيره، ثم يَسوقُه في الليل حتى يُدخِلَهُ الشِعْب (مكان حصار المسلمين)، ثم يتركَه هناك، ويَرجِع دون أن يراهُ أَحَدٌ، فيُصبحُ القومُ وعندَهُم بعضَ القوت.

عام الحزن

▪ آخر وفد قريش إلى أبي طالب

حَضَرَ الموتُ أبا طالب فتوجَّهَ أشرافُ قومِه إلى داره وكان عندَه أَخوه العباس. قال أبو جهل: «يا أبا طَالِب، إنَّك مِنَّا حَيْثُ قَدْ عَلِمْت، وقَدْ حَضَرَك ما تَرى، وتَخَوَّفْنا عَلَيْك، وقَدْ عَلِمْت الذي بَيْنَنا وبينَ ابنِ أَخيك، فَادْعُهُ فَخُذْ لَهُ مِنَّا، وخُذْ لَنا مِنْهُ لِيَكُفّ عَنَّا، وَنَكُفَّ عَنْهُ ولِيَدَعَنا ودينَنا، ونَدَعَهُ ودينَهُ». فطلب أبو طالب من العبَّاس أن ينادي ابنَ أخيه، فجاءَ محمَّدٌ ﷺ، فقال له أبو طالب: «يا ابنَ أخي، هَؤُلاءِ أَشْرَافُ قَوْمِك، قَد اجْتَمَعُوا لَك، لِيُعْطوك، ولِيَأْخُذوا مِنْك».

قال ﷺ: «نَعمْ كَلِمَةٌ واحِدَةٌ تُعْطُونيها تَمْلكُون بها العَرَبَ، وتَدينُ لَكُمْ بها العَجَمُ».

فقال له أبو جهل متحمِّساً ظنّاً منه أن محمَّداً ﷺ سيُهادِنَهُم ويتنازل عن بعض دعوته: «نعم، وأَبيك وعَشْرَ كلمات».

قال ﷺ: «تَقولونَ لا إلـه إلا الله وتَخْلَعونَ ما تَعْبُدُون مِن دونِه».

عندئذ قال بعضهم: «أتريد يا محمَّد أن تَجْعَلَ الآلـهَـةَ إلـٰهاً واحـداً». ثم قال بعضهم لبعض: «والله ما هذا الرّجُل بمُعطيكُم شَيئًا ممَّا تريدون»، وانطلقوا خارجين. وفيهم نزل قوله تعالى في سورة «صٓ»:

﴿صٓ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ ٢ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٖ ٣ وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ ٤ أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ٥ وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ ٦ مَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٌ ٧﴾.

■ وفاة أبي طالب

تُوُفِّي أبو طالب، والأَمرُ بين النَّبي ﷺ وبين قريش أَشَدُّ ممَّا كان. وفُجِعَ رسولُ الله ﷺ بعمِّه الذي كان يَقِفُ حاجزاً في وَجْهِ قريش كلَّما أرادت به شراً.

■ وفاة خديجة g

كان حِصَارُ قريش قد أثّر في خديجة زَوْجِ الرسول ﷺ، فَمَرِضَت واشتَدَّ المرض، ثم تُوفِّيَت رضي الله عنها بعد أيام مِن وفاة أبي طالب. وفَقَدَ الرسول ﷺ بوفاتها امرأةً آمَنَت به ووَاسَتْهُ وأَعطَتْهُ مالَهَا وشجَّعَتْهُ على الصبر.

وقد سُمِّيَ عامُ وفاةِ أبي طالبٍ وخديجةَ بعام الحزن.

رحلة الطائف

لمَّا قَطَعَ النبيُّ ﷺ كلَّ أَملٍ له في إسلام قومه، وبعد عشرِ سنوات من الجُهْدِ المتواصل في دعوتهم إلى عبادة الله وَحْدَه ونَبْذِ الأصنام، خَرَجَ رسولُ الله ﷺ إلى بلدة الطائف، وهي مَصيفُ الحجاز وتبعدُ حوالي مائة كلم إلى الجنوب الشرقي من مكة، لعلَّه يجدُ فيها من بني ثقيف من يستجيب لدعوته أو يتبنَّاها، ثم يَنْشُرها ويدافع عنها.

بعد سَفَرٍ شاقٍّ طويل، وفي أرضٍ وَعِرَةٍ مُلتَهِبَة، استقبلَه أهلُ الطائف شَرَّ استقبال؛ فبَدَلاً مِن أن يُحسِنوا ضيافَتَه على طريقة العرب، إذا بهم يَسبُّونَهُ ويشتُمونَهُ ويَستَهزئون به وبدعوته، وقد عَلِمُوا أنَّ قومَهُ نَبَذوه ولم يَستَجيبوا له. فأَغْرى أهلُ الطائف سفهاءَهُم ليَرْمُوه بالحجارة، حتى أَدْمَوا عَقِبَيْه عليه الصلاة والسلام، وكان زَيْدُ بنُ حارِثَة يَقيهِ بنفسه. فارتَدَّ عائداً، وهم وَراءَهُ يتابعون رَمْيَه

حتى اضطروه أن يلتجىءَ إلى بستان احْتَمَى به، ورجعَ عنه الغَوْغاء. هذا البستانُ هو لعُتْبَةَ وشَيْبَةَ ابنَيْ ربيعة، فأَرسَلا له قِطْفَ عنبٍ مع غلام لهما يدعى «عدّاس».

مدَّ رسولُ **الله** ﷺ يدَه وأخذَ العنقودَ وقال: «بسم **الله**»، فدُهِشَ عدَّاس وقال: «هذا كلامٌ لا يقولُه أهلُ هذه البلاد!». فعَلِمَ النبيُّ ﷺ أنَّ عدَّاساً من بلدة نينوى في العراق، فقال له ﷺ: «أَمِنْ قريةِ الرجلِ الصَّالح يُونُسَ بنِ متَّى؟» فقال عدَّاس: «وما يُدريكَ ما يُونُسُ بنُ مَتَّى؟»، أجابَه عليه الصلاة والسلام: «ذاكَ أخي، كان نبيًّا وأنا نبيٌّ»، ثم تلا عليه قصَّتَهُ في القرآن. فأَكَبَّ عدَّاسُ على النبيِّ ﷺ يقبِّل رأسَهُ ويدَيْهِ ويُبالغ في الحَفَاوَة.

فلمَّا جلسَ رسولُ **الله** ﷺ ، توجَّه إلى ربِّه بهذا الدعاء المؤثِّر:

«أَللهُمَّ، إليكَ أشكو ضَعْفَ قُوَّتي وقِلَّةَ حيلَتي وهَواني على النَّاس، يا أرحَمَ الراحمين إلى مَن تَكِلَني؟ إلى عَدُوٍّ يتَجَهَّمُني؟ أَم إلى قريبٍ مَلَّكتَهُ أَمري؟ إن لم تَكُن ساخِطاً عَلَيَّ فلا أُبالي، غير أنَّ عافِيَتَكَ أَوْسَعُ لي، أَعوذُ بِنُور وجهِكَ الكريم الذي أَضاءَتْ له السَّماواتِ وأَشرَقَت له الظُّلُماتُ وصَلُحَ عليه أَمرُ الدُّنيا والآخِرَة أن تُحِلَّ عَلَيَّ غضَبَك أو تُنْزِلَ عَلَيَّ سَخَطَكَ، ولكَ العُتْبَى حتى تَرْضَى ولا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلاَّ بك»

(٣٦١٣ كنز العمال، ٢/١٧٥).

كان اجتماعُ النبي ﷺ بعدَّاس نوعاً من المُواساة مِن ربِّ

العالمين، فكأنَّما أرادَ الله تعالى أن لا يَبْتَئِس محمَّدٌ ﷺ، فلا تزال الدنيا بخير ولا يزال يَجِدُ فيها مَن يعرفَ له قَدْرَه ويُؤمنُ به ويقدِّر رسالته.

وفي طريق عودته، بعثَ الله تعالى نَفَراً من الجِنِّ استَمَعوا إليه يتلو القرآن ليلاً، فآمَنوا به وعادوا لقومِهم مُنْذِرين. وتكرَّر مَجيءُ الجِنِّ ليَستمِعوا وليُسلِموا كما ذَكَرَ الله عَزَّوَجَلَّ في سورَتي الأحقاف والجِنِّ. قال تعالى:

﴿وَإِذۡ صَرَفۡنَآ إِلَيۡكَ نَفَرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْۖ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوۡاْ إِلَىٰ قَوۡمِهِم مُّنذِرِينَ ٢٩ قَالُواْ يَٰقَوۡمَنَآ إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٣٠ يَٰقَوۡمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُجِرۡكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ٣١ وَمَن لَّا يُجِبۡ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيۡسَ بِمُعۡجِزٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَيۡسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءُۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٣٢﴾ [سورة الأحقاف].

ولمَّا عادَ الرسولُ ﷺ من الطائف، منعته قريش من دخول مكة، فاضْطُرَّ أن يدخُلَها بجوار المُطْعِمِ بن عَدِيٍّ؛ إذ أَمر المُطعِمُ أولادَهُ ليتجهَّزوا بالسلاح، ليُحافظوا على محمَّد ﷺ بعد أن أَعلَمَ قريشاً أنَّ محمداً دخل في جواره، فلم تستطع قريش أن تَمْنَعَ النبيَّ ﷺ من دخول بلده وبيته.

وهكذا نلاحظُ المَشقَّةَ الكبيرة التي كان يلاقيها محمَّد ﷺ

في نَشْرِ دعوتِه، فكلُّ عملٍ يحتاج إلى مجهودٍ لإنجاحِه، وأَشَقُّ المجهودات ما كان في تغيير عادات الناس وعقائدهم.

الإسراء والمعراج

بعد رجوع رسول الله ﷺ من الطائف واسَاهُ ربُّه أَعظَمَ المواساة، إذ أَسرى به إلى بيتِ المقدس وكرَّمه بجَعلِهِ إماماً يُصَلي في الأنبياء وكأنه يقول له بهذا: أنتَ عندي بالمكان الأَسمى، ولستَ إماماً للمُتَّقين فقط، بل للأنبياء والرُّسُل مِن أُولي العزم، فلا تَبْتَئِس بما يعملُ قومُك، فالفرج قريبٌ والأُمور بخواتيمها.

ولم تقتصر المواساة على الإسراء إلى بيت المقدس، بل عَرَجَ به ربُّه إلى جنَّات النَّعيم ليُرِيَه من آياته الكبرى.

أما الإسراء، فقد قال الله تعالى في أوَّل سورة الإسراء: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١﴾.

وأما المعراج فقد قال الله تعالى في سورة النجم: ﴿إِذۡ يَغۡشَى ٱلسِّدۡرَةَ مَا يَغۡشَىٰ ١٦ مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ١٧ لَقَدۡ رَأَىٰ مِنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ ١٨﴾.

وعاد رسول الله ﷺ من رحلته الممتعة، وقد ارتفعت معنوياته جداً، حتى نَسِيَ كلَّ آلامِه ومِحَنِه التي مرَّت به.

وفي صبيحة ليلة الإسراء قابلته ابنةُ عمِّه أُمُّ هانىء، فقال لها

ﷺ: «يا أُمّ هانِئ، لَقَدْ صَلَّيْت مَعَكُم العِشَاءَ الآخِرَة، ثُمَّ جِئْت بَيْتَ المَقْدِس فَصَلَّيْتُ فيه، ثُمّ قَدْ صَلَّيْتُ صَلاةَ الغَدَاةِ مَعَكُم الآنَ كما تَرَيْنَ».

قالت ابنةُ عمِّه أُمُّ هانىء: «يا نَبِيَّ **الله**، لا تُحَدِّثُ بهذا النّاسَ» لعِلْمِها أنَّ عقولَهُم لا تَحتَمِلُهُ. ولكنَّ رسولَ **الله** ﷺ لم يَستَجِبْ لها رَغْمَ عِلْمِهِ بصَوابِ رأيها، فقد امتلأت نَفْسُهُ حماساً وانتعاشاً بما شاهَدَ في إسرائه ومعراجه، ونَسِيَ كلَّ آلامِهِ ومصائبِه.

وسأله أبو جهل باستهزاء: «هل كان مِن شيء؟» فأجابه ﷺ بعزم: «نعم أُسرِيَ بي إلى بيت المقدس، ونُشِرَ لي رهطٌ منَ الأنبياء منهم إبراهيم وموسى وعيسى، وصَلَّيتُ بهم وكلَّمتُهُم».

انطلق أبو جهل يعدو داعياً قريشاً ليُثْبِتَ تكذيب محمَّد ﷺ.

وأقبلَ القومُ، وأحاطوا برسول **الله** ﷺ. وسرعان ما طَلَبَ إليه أبو جهل أن يُخبِرَ القومَ بما رأى، فإن تكلَّم أَثبَتَ جنونَه، وإن سكتَ كَذَّبَهُ واتَّهمَهُ بالخيانة. وسألُوه أن يَصِفَ لهم بيتَ المقدس. فجلاَّه **الله** له، فطَفِقَ يُخبرُهُم عنه، وأَخبرَهُم عن عِيرهِم، وحدَّدَ لهم وقت رجوعها؛ فتحقَّقَ ما قال، وما زادَهُم هذا الحقُّ إلا نفوراً.

واستَكْبَرَت قريش عن التصديق ظُلْماً وجُحوداً، رغم أنه لم يذكُر بَعْدُ رحلتَهُ إلى السماء في مِعراجِه العجيب.

أما أبو بكر رضي الله عنه فقد انطلقَ مِن فَوْرِه يقول: «أشهدُ أنَّكَ صادقٌ

يا رسولَ **الله**، إنّي لأُصدِّقك فيما هو أبعدُ من ذلك، أصدِّقُك في خَبَرِ السماءِ، أَفَلا أصدِّقُكَ في إكرامِ **الله** إيَّاكَ أن ينقُلَكَ في ليلةٍ واحدةٍ مسيرةَ شهر».

بيعة العقبة الأولى

اشتدَّ الأذى على المسلمين، وزادت قريش في تعذيبها لكلِّ مَن أَسلَمَ. فبدأَ الرسول ﷺ يفكِّرُ بالهجرة مِن مكة إلى أرضٍ تكون أكثرَ خصوبَةً لغَرْسِ دعوته، ليَدْعُو أُناساً أَكثر استعداداً لتقبُّل دعوته، لعلَّه يستطيع أن يبلِّغَ رسالةَ ربِّه، ويؤسِّسَ دولتَهُ الإسلاميَّة الناشئة.

بعد أن رجعَ الرسولُ ﷺ من الطائف، فكَّر في أن يَعْرِضَ دينَهُ في موسم الحج على قبائل العرب. وحَدَثَ أن جاءَ وفدٌ مِن يَثْرِبَ (التي سُمِّيَت فيما بَعْدُ بالمدينة المُنَوَّرَة) في موسم الحجِّ وعددُهُم اثنا عشر رجلاً وامرأةً واحدة. فالتقى بهم رسولُ **الله** ﷺ عند العَقَبَة، ودعاهم إلى الإسلام فأَسلَموا، وعَقَدَ معهم رسولُ **الله** ﷺ بيْعَتَهُ الأولى سراً، وأرسل معهم مُصْعَبَ بن عُمَيْر يعلِّمُهُم القرآن، ويُفَقِّهُهم في الدين. فرجعوا إلى قومهم يُبَشِّرونَهُم بالنَّبيِّ المُنْتَظَر الذي كانت اليهودُ تتوَّعَدُهُم به، وهذه هي بيعة العقبة الأولى.

انتشار الإسلام في المدينة

قام مُصْعَبُ بن عُمَيْرٍ رضي الله عنه بالمُهِمَّة التي كلَّفَهُ بها رسولُ **الله** خير قيام، فانتشرَ الإسلام في يَثْرِب، ثُمَّ أخذ رسولُ **الله** ﷺ يرسل أصحابَهُ مَثْنى مَثْنى وثلاثاً ثلاثاً إلى يَثْرِبَ حيث يَجْدُون مَن يرحِّبُ بهم ويُؤويهم. فلم تَمْضِ سنتان حتى كان عامَّةُ أصحابه قد تركوا مكةَ واستقروا في يَثْرِب (المدينة المنورة).

كان مُصْعَبُ بنُ عُمَيْر رضي الله عنه لبقاً، وكان يعلِّمُ المسلمين القرآن، وحَدَثَ أن كان مُصْعَبُ وسَعْدُ بنُ زرارة (رجلٌ من الأنصار) في أحد البساتين، يعلِّمان الأنصارَ دينَهُم، وبلغ ذلك سعدُ بنُ معاذ وأُسَيْدُ بن حُضَيْر (وهما زعيمان من زعماء المدينة). فقال سعدُ بنُ معاذ لأُسَيْد: انطَلِقْ إلى هذَيْن الرَّجُلَيْن، اللذين أَتَيا دارَنا ليُسَفِّها ضُعفاءَنا فازْجُرْهُما وانْهَهُما، فأنا لا أستطيعُ أن أَفعَلَ ذلك بنفسي لأنَّ سَعْدَ بنَ زُرَارَةِ ابنُ خالتي ولا أُريد إهانَتَه.

قام أُسَيْدُ وابتدأ يُعنِّفُهما، فتركه مُصْعَبُ حتى إذا أَفرغَ جُعْبَتَه؛ قال له: «أَوَ تَجْلِسُ فتَسْمَع؟ فإن رضيتَ أمراً قَبِلْتَه، وإن كَرِهْتَهُ كُفَّ عنك ما تَكْرَه». قال أُسيد وقد شعر بخطئه: «أَنْصَفْتَ»، ولم يمضِ قليلُ وقتٍ حتى قام أُسَيْدُ مسلماً، وعاد إلى سعد بوجهٍ غير الذي تركَه به. فغاظ ذلك سعداً وقام بنفسه إلى الرجلين، وأفرغ جُعْبَتَه أيضاً بغضب لأنَّ أتباعَهُ يذهبون شيئاً فشيئاً إلى الإسلام. فما كان مِن مُصْعَبٍ إلا أن استمعَ إليه بسكونٍ وتُؤَدَة، فلمَّا انتهى مِن مقالته،

قال له مِثْلَ ما قال لأُسَيْد: أتحبُّ أن تَسمَعَ، فإن أَعجَبَكَ ما نقولُ قَبِلْتَه، وإلا كَفَفْنا عنك وسَكَتْنا. فجلس يَستَمِعُ إلى مُصْعَبٍ الكيِّسِ الفقيه، الخلوق، ولم يَمْضِ إلا قليلٌ حتى قام مُسلِماً.

لقد دخل الإسلام إلى قلبه دون استئذان ولا إزعاج. فلما عادَ إلى قومه بني عَبْدِ الأَشْهَلِ قالوا: «والله، عادَ بغير الوجهِ الذي ذَهَبَ به». فوَقَفَ سعدُ أمامَ قومِه وقال لهم: «يا بَني عبدِ الأَشْهَل، كيف تَعْلَمون أَمْري فيكم؟»، قالوا: «سيِّدُنا وأَعلَمُنا وأَفضَلُنا رأياً». قال لهم عندئذ: «فإنَّ كلامَ رجالِكُم ونسائكُم عليَّ حرامٌ حتى تُؤمنوا بالله ورسوله». فأَسلَمَ بنو عبدِ الأشهل جميعاً.

بيعة العقبة الثانية

وفي السنة الثانية، أَقبَلَ وَفْدٌ آخر إلى مكة وعدَدُهُم ثلاثةٌ وسبعون رجلاً وامرأتان. فعقَدَ الرسولُ ﷺ بيعتَهُ الثانية على أن يَحمُوهُ كما يَحمُونَ أَنفُسَهُم وأَهليهم إن هو أَصبَحَ بين ظَهْرانيهِم ويبايَعوهُ أيضاً على أن لا يُشرِك أحدُهُم بالله شيئاً ولا يسرقَ ولا يزني ولا يقتلَ أولادَهُ ولا يَعصِيَ الله في معروف. فإنْ وَفَّى الواحدُ منهم بذلك دَخَلَ الجنَّة، وإن غشي من ذلك شيئاً[1] فأَمْرُهُ إلى الله؛ إن شاءَ عذَّبَه، وإن شاءَ غفَرَ له، وهذه هي بيعة العقبة الثانية.

ثم كلَّفَ رسولُ الله ﷺ عليهم اثني عشر رجلاً منهم، فقال ﷺ

(١) ارتكب معصية من هذه المعاصي.

لهم: «أنتم على قَوْمِكم كُفَلاءَ ككفالة الحَوارِيِّين لعيسى بنِ مريم»

(٣٧١٠١ مصنف ابن أبي شيبة، ٧/٤٤٤).

المؤامرة بقتل النبي ﷺ

لاحظت قريش أنَّ المسلمين يهاجرون خِفْيَةً، وبدأت مكة تَفْرَغُ من المسلمين شيئاً فشيئاً. فصَحَتْ قريشٌ مِن غَفْلَتِها، وقالت: «لو تركنا محمداً ينجو ليلحَقَ بأصحابِه فإنَّ ذلك سيكونُ خطرًا علينا»، وخاصةً وقد أصبحَ له في المدينة أنصارٌ يمنعونَه من أعدائِه كما يمنعونَ أنفُسَهم وأَهليهِم. وبدأ كفار قريش يفكِّرون بخطة يستدركون بها ما فاتهم من الحيطة والحذر. فاقترح بعضُهُم أن يُحبَس محمَّدٌ حتى الموت فلا يستطيع أصحابُه الوصولَ إليه، ولكن هذا الرأي سقط، لأنه من الممكن أن يجتمعَ أصحابُه خارج مكة فيعملوا على انتزاعه. واقترح آخرون نَفْيَهُ خارج البلاد، ولكن هذا الرأي سقط أيضاً، لأنه مِن الممكن أن يجتمعَ أصحابُه ويهاجموا مكة.

وأخيراً، اقترح أبو جهل أن يضعوا ليلاً على باب النَّبي ﷺ رَهَطاً من الشبان، واحداً من كل قبيلة، كي يغتالوه عندما يخرج في الصباح من بيته. وهكذا يتفرَّقُ دمُه بين القبائلِ، فلا تستطيعُ عشيرتُه أن تحارِب العربَ جميعاً، فيقبَلونَ بالديةِ، وينتهي الأمرُ، وتعودُ قريش إلى سالفِ عهدِها وجاهليَّتِها.

ولكنَّ **الله** سبحانه وتعالى لهم بالمرصادِ فأخبَر نبيَّه ﷺ بما يُبَيِّتُ له القومُ فما كان منه ﷺ إلا أن أنامَ مكانَه ابن عمهِ البطل الهمام علياً رضي الله عنه وخرجَ من بيته، وقد ألقى **الله** النومَ على هذا الرهطِ من الشبابِ الذين يحيطون ببيت رسول **الله** ﷺ فلم يُحسُّوا به، فلما اقتحموا البيتَ في الصباحِ وجدوا الشابَّ الشجاعَ عليَّ بن أبي طالب، ففوجئوا به ثم انطلقوا يبحثون عن محمَّد ﷺ بجنون.

كانت مهمة علي بن أبي طالب كَرَّم **الله** وجهَهُ أن يَبيتَ مكان الرسول ﷺ، وأن يبقى في مكة ليَرُدَّ الودائع التي كانت عند النبي ﷺ لأصحابها؛ وهذا الأمرُ غير مُستَغْرَبٍ من رسول **الله** ﷺ حيث أنَّهم يريدون قَتْلَهُ، بينما هو يعرِّض ابنَ عمِّه عليًّا رضي الله عنه للخطر، ويُبْقِيَه ليَرُدَّ الودائعَ إلى أصحابها.

كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه قد أتى النبي ﷺ قبل فترة يستأذنُه بالهجرة. فقال له الرسول ﷺ: «لَا تَعْجَلْ، لَعَلَّ **الله** يَجْعَلُ لَك صَاحِبًا»، فرجع أبو بكر فرحاً لأنه أَمِلَ أنه سيكون صاحباً للرسول ﷺ في الهجرة.

في ليلة الهجرة خرج رسول **الله** ﷺ من بيته، واتَّجَهَ إلى بيت أبي بكر وقال له: «إنَّ **الله** قد أَذِنَ لي بالخروج والهجرة» . فقال أبو بكر: «الصُّحْبَةَ يا رسولَ **الله**». قال: «نعم». فهتف أبو بكر: «وافَرحَتاه، الحمدُ **لله**». وكان أبو بكر قد أعدَّ راحلتَيْن لهذا الأمر، فسأله النبي

ﷺ عن ثَمَنِ إحداهُما فقال أبو بكر: «هي لكَ يا رسولَ **الله**». قال ﷺ: «إني أُحِبُّ أن تكون هجرتي خالصةً في سبيل **الله**».

وانطلق الرسول ﷺ مع أبي بكر جنوباً جهةَ اليَمَن مشياً على الأقدام، بدلاً مِن أن ينطلقا شمالاً إلى جهة المدينة، ليُمَوِّها على العدو. ثم صعدا جبلاً مرتفعاً واخْتَبَئا في غار اسمه غارُ ثَوْرٍ. دخل أبو بكر أوّلاً، فجعل يَسُدُّ كلَّ الثقوب الموجودة في الغار خوفاً مِن حيَّةٍ تلدغُ الرسول ﷺ. وسَخَّرَ **الله** سبحانه وتعالى العنكبوتَ فنَسَجَ على بابِ الغار شِباكَهُ، وجلست حمامةٌ على باب الغار فَبَاضَت وجَلَسَت على بيضِها.

وغار ثور أعلى ثلاثَ مرات مِن غار حِراء، ومن الصعب العثورُ عليه، غير أنَّ قريشاً وَضَعَتِ المكافآت لمن يدلُّ على الرسول ﷺ وصاحِبِه. فجَدَّ الشباب في البحث عنهما طمعاً بالجائزة الكبيرة التي كانت مائةَ ناقةٍ عن كلِّ واحدٍ منهما. وقد وَصَلَ الباحثون عنهما فعلاً إلى الغار. غير أنَّ **الله** تعالى أَضلَّهم من قِبَلِ ذكائهم: إذ رأَوا العنكبوت قد نَسَجَ على بابه نسيجاً كثيفاً، كما رأَوا حمامةً طارَتْ عن بَيضِها عند مدخله. فقال بعضُهم لبعض: إنَّ خيوطَ العنكبوتِ أقدَمُ من ميلادِ محمد، كما أنَّ الحمامةَ البرية لا تسكُنُ في مكانٍ فيه أحدٌ، فصرفَهم **الله**ُ عن دخولِ الغارِ بذكائِهم.

أما داخل الغار، فقد اشتدَّ الخوفُ بأبي بكر رضي الله عنه، ليس على نفسه

بل على صاحبه محمَّد ﷺ لأنه يعلم أنَّ موتَهُ هو لا يؤذي الدعوة إلى الإسلام كما يؤثِّر موت صاحبه محمَّد ﷺ. فقال هامساً لرسول **الله** ﷺ: «لو نَظَرَ أحدُهم تحت قدميه لأَبصَرنا». فأجابه عليه الصلاة والسلام بلهجة المطمئن: «ما ظنُّك باثنين **الله** ثالثُهُما» (٤٣٨٦ صحيح البخاري، ٤/١٧١٢) وقد بيَّن **الله** تعالى هذا الحديث بقول **الله** تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [سورة التوبة، ٤٠].

مكث النبي ﷺ في الغار ثلاثة أيام، ولمَّا اطمأن الرسول ﷺ إلى انخفاض حدَّة البحث عنهما، وخُلُوِّ الطريق، ركبا راحلتين واتخذا طريقاً غير مطروق[١]، وقاما بدَوْرَةٍ طويلة ليقطعا حوالي ٥٠٠ كلم في صحراء مُحْرِقَة.

جَدَّ الشبابُ بالبحث عنهما، فعَثَرَ عليهما شابٌّ اسمُه سُراقَة فتَبَعَهُما حتى إذا أصبحَ قريباً منهما تعثَّرَ فَرَسُه، فقامَ ثم تَبِعَهُما من جديد، ورسول **الله** ﷺ دائمُ الذِّكر **لله** عَزَّ وَجَلَّ بينما أبو بكر الصديق رضي الله عنه يُكثِرِ التلفُّتَ خوفاً. ولما أَصبَحَ سُراقَةُ قريباً منهما، إذ بجواده يكبو كَبْوَةً عنيفةً تُلقيهِ عن ظهرِهِ بقوَّةٍ ويتدحرجُ على الأرض بسلاحه.

عندها علم سُراقة أنَّ محمداً محروسٌ بالعناية الإلهية فناداهما طالباً الأمان، فأَسلَمَ وأَخَذَ منهما كتاباً دليلاً على إيمانه، ثم عاد أَدراجَهُ ليضلِّلَ كلَّ مَن أراد البحثَ عنهما.

كان المسلمون في المدينة ينتظرون قدومَ الرسول ﷺ إليهم،

---

(١) أي لا يسلكه أحد.

بعد أن علموا بهجرته. فكانوا يخرجون كلَّ يوم صباحاً ينتظرونه حتى تشتدَّ عليهم الشمس، ثم يعودون إلى منازلهم.

وذاتَ يومٍ، وبعد أن رجعوا إلى بيوتِهِم، صَعِدَ يهوديٌ إلى أَكَمَةٍ فرأى راحلتين عليهما محمَّدٌ ﷺ وأبو بكر رضي الله عنه. فصرخ بأعلى صوته: «يا بني قَيلة ، هذا صاحبكم قد جاء». فصاح المسلمون: «**اللهُ** أكبَر، **اللهُ** أكبَر»، ثم هرعوا خارجين يتسابقون فرحين ،واستقبلوا رسول **الله** ﷺ خيرَ استقبال بالأناشيد والأهازيج رجالاً ونساءً وأطفالاً كأنَّه يومُ عيد بقولهم:

طَلَعَ البَدْرُ عَلَيْنَا
مِن ثَنِيَّاتِ الوَدَاع
وَجَبَ الشُّكْرُ عَلَيْنَا
مَا دَعَا لِلَّهِ دَاع
أَيُّهَا المَبْعُوثُ فِينَا
جِئْتَ بِالأَمْرِ المُطَاع
جِئْتَ شَرَّفْتَ المَدِينَة
مَرحَباً يَا خَيْرَ دَاع

وهكذا وصل رسول **الله** ﷺ إلى المدينة في اليوم الثاني عشر من شهر ربيع الأول، الموافق ٢٧ أيلول سنة ٦٢٢ ميلادية، وتسابقَ أهلُ المدينة إلى ناقةِ رسولِ **الله** ﷺ، كلٌّ يريدُ أن يأخذَ رسول **الله**

إلى بيته، ليكون له شَرَفُ ضيافته، غير أنَّ رسولَ اللَّه ﷺ شَكَرَهُم، وأَخبَرَهُم أنَّ النَّاقةَ مأمورة، فتركوها تسيرُ حيثُ أَلْهَمَها ربُّها، ثم بَرَكَت في مِرْبَد(١) يملكه سهلٍ وسهيلٍ ابنَا عمرو من بني النجَّار. فابتاعَهُ رسولُ الله ﷺ ليبنيَ فيه مسجداً، وأَقامَ الرسول ﷺ أثناءَ عملية البناء في دار أبي أيوب الأنصاري، حيث ساعَدَ ﷺ الصَّحابَةَ في بناء المسجد. ثم بنى دارَهُ ملاصقةً للمسجد. وكان المسجدُ بسيطاً جداً، بحيث لم يَتَعَدَّ سَقْفُهُ جريدَ النَّخْل وأَعمِدَتُهُ جذُوعُها وأَرضُهُ التُّرابُ والحَصَى.

كان للهجرة الأَثَرُ العظيم في تاريخ الإسلام، لهذا نرى عمرَ بن الخطاب ﷺ يُؤَرِّخُ التاريخ الإسلامي بيوم الهجرة لما كان له مِن شأن عظيمٍ في نَظَرِ المسلمين؛ إذ منذ الهجرة، انتهى عهد الاسْتِضْعافِ والإستِذْلال وبدأَ عهدُ العِزَّة والقوَّة.

وبعد أن استقرَّ رسولُ الله ﷺ في المدينة، بدأَ يُنشِىءُ دولتَه العتيدة فكان يُؤاخي بين المهاجرين والأنصار. وانشرحَت قلوبُ الأنصار إلى إخوانهم المهاجرين، فآوُوهم في دُورِهِم. كان الأَنصاريُّ يقول لأَخيه المهاجر: «هذه أرضي وهذا مالي، فلكَ نصفُه وليَ النصف». غير أنَّ بعض الصحابة كان يرفضُ شاكراً هذا الكَرَمَ كعبد الرحمن بن عوف مثلاً إذ طَلَبَ من أخيه الأنصاري، أن يدلَّهُ على السوق ليُتاجِرَ ويَكسِبَ المالَ مِن عرق جبينه. وقد ذكر الله ﷻ كَرَمَ الأنصار

(١) مكانٌ لتجفيف التمر.

وحُبَّهُم لإخوانهم وإيثارهم لهم على أنفُسِهِم في القرآن الكريم بقوله تعالى:

﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [سورة الحشر].

خطبة الرسول ﷺ في المسجد

بنى الرسول ﷺ المسجد ودخل الناس إليه يصلُّون جماعة.

وخطب رسول الله ﷺ مرةً فقال: «الحمدُ لله نحمَدُه ونَستَعينُهُ ونَستَغفِرُهُ ونتوبُ إليه، ونعوذُ به من شرورِ أنفُسِنا وسيئاتِ أعمالِنا. من يهدِ الله فلا مُضِلَّ له، ومن يُضلِل فلا هاديَ له، وأشهدُ أن لا إلٰه إلا اللّٰه وحدَهُ لا شَريكَ له.

أمَّا بَعْد، أيُّها النَّاس، فَقَدِموا لأَنْفُسِكُم، تَعلمُنَّ، واللّٰه، لَيُصْعَقنّ أَحَدُكُمْ ثُمَّ لَيَدَعَنَّ غنَمَهُ لَيْسَ لها راعٍ. ثُمَّ لَيَقولَنَّ لَهُ رَبُّهُ ولَيْسَ لَهُ تُرْجُمانٌ ولا حاجِبٌ يَحْجُبُهُ دونَهُ: أَلَمْ يأْتِك رَسولي فَبلّغك، وآتَيتُك مالًا وأُفْضِل عليْك؟ فما قدَّمْتَ لِنفْسِك؟ فَلينْظُرَنَّ يمينًا وشمالًا فلا يرى شيئًا، ثُمَّ لَينْظُرَنَّ قُدَّامَهُ فلا يرى غيْرَ جهنَّم؛ فَمَنِ استَطاعَ أَن يَقِيَ وَجْهَهُ مِنَ النَّارِ ولَوْ بِشِقَّةٍ من تَمْرَةٍ فَلْيَفْعل، ومَن لَمْ يَجِدْ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَة، فَإِنَّ بها تُجْزَى الحَسَنَةُ عشْرَ أَمْثالِها إلى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ، والسَّلامُ عَلَيْكُم ورَحْمَةُ الله وبَركَاتُه».

معالم الحياة الإسلامية في المدينة

بدأَ الرسولُ ﷺ في المدينة يَعقِدُ المعاهدات مع اليهود وغيرهم؛ فقد كتبَ النبيُّ ﷺ كتاباً جَمعَ فيه كلَّ أهلَ المدينة من المهاجرين والأنصار واليهود . قال ﷺ فيه ما معناه: «إنَّ المؤمنينَ إخوةٌ، وهم يَدٌ واحدةٌ على الظَّالمِ ولو كان وَلَدَ أحدِهِم، وإنَّهم لا ينصرونَ مُحدِثاً[١] ولا يُؤْوُنَه، وإنَّ اليهودَ حلفاءُ للمسلمينَ يحاربون مع المسلمين مَن حاربَ المدينة، وإنه لا أحَدٌ يَنْصُرُ قُريْشاً ولا يُجيرُها، وإنّ كلَّ اختلافٍ مردُّهُ إلى اللهِ ورسولِه ﷺ».

وهكذا أصبحت المدينة المنوَّرة كتلةً واحدة، وأَصبَحَت أراضيها كالقلعة الحصينة، لا يستطيعُ ظالمٌ أن يَعتَدِيَ على أَحَدٍ فيها.

وفي هذه الفترة، فُرِضَت الزكاة والصيام، وقامَتِ الحُدود، وتَمَكَّنَت في المدينة دولةُ الإسلام؛ فارتَفَعَ الأذانُ فيها عالياً يدعو المؤمنين لعبادَةِ اللهِ وَحْدَهُ لا شريكَ له خَمْسَ مرَّاتٍ في كلِّ يومٍ وليلة.

قصة الأذان

قصَّةُ الأذان تعود إلى أنَّ المسلمين كانوا يجتمعون في المسجد للصَّلاةِ دون أذان، وكانوا يتفاوتون في الإجتماع؛ فمنهم مَن كان يدخلُ المسجدَ مبكِّراً، ومنهم مَن كان يدخُلُهُ متأخِّراً، فشَكَوْا ذلك إلى

---

(١) مُحْدِثاً: مجرماً.

رسول **الله** ﷺ. واقترحَ بعضُهم أن يكون عندَهُم جرسٌ كبيرٌ يَدُقُّونَه لإعلام الناس بمجيء وقت الصلاة ليدخلوا المسجدَ جماعات.

ذهبَ عُمَرُ بنَ الخطاب يَشتَرِيَ خشباً لتَثْبيتِ النَّاقوس، ولكنه رجعَ في اليوم التالي دون أن يَشتَرِيَ شيئاً. وقال: «يا رسولَ **الله**، لقد طافَ بي هذه الليلةَ طائفٌ يقول: لا تجعلوا النَّاقوسَ بل أذِّنوا للصلاة». وفيما هو يحادثُ الرسول ﷺ إذا به يسمعُ صَوْتَ بلال يؤذِّنُ: «**الله** أَكْبَرُ، **الله** أَكْبَرُ».

قال عمرُ متعجِّباً: «إنَّ بلالَ يَصرُخُ بالذي سَمِعتُهُ ليلاً».

فقال الرسول ﷺ باسماً: «قد سَبَقَك بذلك الوَحْي».

فقال عمر: «و**الله**، ما كَرِهْتُ شيئاً مثل أن تَجعَلَ بوقاً كبوق اليهود الذي يدعون به لصَلاتهم، ولا مِثْلَ الناقوس».

وتابع بلالُ الأذان. «أَشْهَدُ أَن لا إله إلَّا **الله**، أَشْهَدُ أَن لا إله إلا **الله**؛ أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسولُ **الله**، أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ **الله**؛ حَيَّ على الصَّلَاة، حَيَّ على الصَّلَاة؛ حَيَّ على الفَلاح، حَيَّ على الفَلاح؛ **الله** أَكْبَرُ، **الله** أَكْبَرُ؛ لا إله إلَّا **الله**». ومنذ ذلك الحين أَصبحَ الناسُ يأتونَ الصلاةَ في موعدِها، ولا يتأخَّرون عنها.

غزوة بدر

بلغ المسلمين أنَّ قافلةً لقريش آتيةً مِن الشام إلى مكة، وبما أنَّ المدينةَ تقعُ بين مكة وبلاد الشام، فإنَّ طريق القوافل تمرُّ بالقرب

منها، فاغْتَنَمَها المسلمون فرصةً لعلَّهم يُعَوِّضون بعضَ ما فاتَهُم مِن أموالهم التي خلَّفوها في مكة، وصادرتها قريش. وبما أنَّ غزو القافلة لا يحتاج إلى كثير من الرجال والسلاح، فقد خرجوا قِلَّةً ومُشاةً، ومعهم السيوف فقط دون الرماح والدُّروع والخيل وعدَّةِ الحرب الكاملة. عَلِمَت القافلة وعلى رأسها أبو سفيان بن حرب بالأمر، فانحرَفَت غرباً وسارَت مع الساحل فَنَجَت من الغزو.

غير أنَّ **الله** ﷻ لم يُخرِجِ المسلمين منَ المدينة لينالوا عَرَضاً من أَعراض الدنيا، بل أَخرجَهُم ليَقْضِيَ أَمراً كان مفعولاً، فجعلَ منَ القافلة سبباً ليطمَعَ المسلمون بالخروج، ثم ليضعَهُم وجهاً لوجه أمامَ عدوِّهُم، وينصُرَهُم عليهم نَصْراً مؤَزَّراً.

بلغ قريشاً أنَّ محمداً ﷺ وصَحْبَه خرجوا يقطعون الطَّريقَ على قافلتهم الغنيَّة بالخيرات. فما كان منها إلا أن خَرَجَت برجالها لتَحْمِيَ أَموالَها وتجارتَها الثَّمينَةَ من المسلمين. لمَّا عَلِمَت قريش أنَّ القافلةَ نَجَت، رأى البعضُ أن يعودوا إلى مكَّة، لأنَّ هَدَفَهُم من الخروج إنقاذُ القافلة، وحيث أنَّ القافلةَ نَجَت فلا داعي للقتال. غضبَ أبو جهل وقال: « **والله**، لا نرجعُ حتى نَرِدَ بدراً، فنُقيمُ فيه، نَنْحرُ الجَزور، ونُطعِمُ الطعام، ونَسقي الخمر، وتَعزِفُ علينا القيان وتَسمَعُ بنا العربُ وبمَسيرنا وجَمْعِنا، فلا يزالون يَهابونَنا أبداً بَعدَها ». وهكذا سعى هذا الطاغية حَتْفَ أَنفِهِ فقُتِلَ شَرَّ قِتْلَة.

وهكذا، فَبَدَلاً من أن يلتقي المسلمون بالقافلة، إذ بهم يَلتَقون بقريشٍ بخَيْلِها ورِجَالِها.

أمَّا الرسولُ ﷺ فقد استشارَ أصحابَهُ في حربهم قريشاً، حتى يكون كلُّ شيءٍ برضاهم. فأَجابُوهُ كلُّهم مهاجرون وأنصار بكلامٍ أَدخَلَ السرور إلى قلبه.

تكلَّمَ عن المهاجرين أبو بكر رضي الله عنه فقالَ وأَحسَنَ، ثم قامَ عمر رضي الله عنه فقالَ وأَحسَنَ، ثم قامَ المِقْدادُ بنُ عمرو رضي الله عنه فقال: «يا رسولَ **الله**، امْضِ لما أَراكَ **الله**، فنحنُ معك، و**الله** لا نقولُ لك كما قالَ بنو إسرائيل لموسى: إذهَبْ أنتَ وربُّكَ فقاتلا إنَّا هٰهنا قاعدون، ولكن اذهبْ أنتَ وربُّك فقاتلا إنَّا معكُما مقاتِلون».

أمَّا الأنصارُ فقد تكلَّم عنهم سعدُ بن معاذ رضي الله عنه قال: «لقد آمنَّا بكَ يا رسول **الله**، وصدَّقناكَ، وشهِدنا أنَّ ما جئتَ به هو الحق، وأعطيناكَ على ذلكَ عُهودَنا ومَواثيقَنا على السَّمْعِ والطَّاعةِ فامْضِ لما أَردْتَ فنحنُ معك، فوالذي بعثكَ بالحقّ لو استعرضْتَ بنا هذا البحرَ فخُضْتَهُ لخُضْناهُ معك، ما تخلَّفَ منَّا رجلٌ واحد. وما نكرهُ أن تلقى بنا عدوَّنا غداً، إنا لصُبُرٌ في الحرب، صِدْقٌ في اللقاء، لعلَّ **الله** يُريكَ منَّا ما تَقَرُّ به عينُك. فَسِرْ بنا على بركةِ **الله**».

عندها بشَّرَ رسولُ **الله** ﷺ أصحابَهُ بأنَّ **الله** قد وَعَدَهُ إحدى الطائفتَيْن: إمَّا القافلة، وإمَّا النَّصرَ على العدو.

وصل المسلمون إلى بدر، ولكنَّهم نزلوا بعيداً عن الماء. فقام صحابيٌّ يُدْعى الحُبَابُ بنُ المُنْذِرِ ﵁، وقال: «يا رسولَ **الله**، أهذا منزلٌ أنْزَلَكَه **الله** ليس لنا أن نَتقَدَّمَه أو نتأخَّرَ عنه، أم هو الرأيُ والحربُ والمكيدة؟»، فقال ﷺ: «بَلْ هُوَ الرَّأْيُ والحَرْبُ والْمَكِيدَة».

فقال الحُباب: «يا رسول **الله**، إنَّ هذا ليسَ بمنزل، فانْهَضْ بنا حتى نأتيَ أَدنى ماءٍ من القومِ (قريش) فننزِلُه، ثم نغوِّر(١)، ما وراءه من القُلُب(٢)، ثم نبني عليه حوضاً فنملأه فنشربُ ولا يشربون» فاستحسنَ النبي ﷺ رأيَ الحباب، وفعَلَ بما أشارَ به امتثالاً لقول **الله** ﷻ: ﴿وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ ١٥٩﴾ [سورة آل عمران]؛ فكان ذلك من جملة أسباب النصر.

بنى المسلمون حَوْضَ الماء وطَمَروا الآبارَ الباقية. أشار سعدُ بن معاذ على رسول **الله** ﷺ قائلاً له: «نبني لكَ يا نبيَّ **الله** عريشاً تكون فيه، ونُعِدُّ لك ركائبَكَ ثم نلقى عدوَّنا، فإن أَعزَّنا **الله** وأَظْهَرَنا عليهم كان ذلك ما أَحببْنا، وإن كانت الأُخرى جلستَ على ركائبِك فلَحِقْتَ بمن وراءَنا مِن قومِنا، فقد تخلَّف عنكَ أقوامٌ يا نبيَّ **الله** ما نحنُ بأَشدَّ لكَ حُبّاً منهم، ولو ظنُّوا أنَّكَ تلقى حرباً ما تخلَّفوا عنكَ».

رضي رسول **الله** ﷺ بفكرة سعد، فأَرسَلَهُ مع بعض الصحابة ليَبْنوا عريشاً. ثم صفَّ المسلمين وعدَدُهم ثلاث مائة وثلاث عشر رجلاً

---

(١) نُغَوِّر: نفسد.

(٢) القُلُب جمع قَلِيْب وهو البئر.

تجاه المشركين، وعدَدُهم حوالَي ألف رجل.

وبعد مبارزات إفرادية قصيرة، قُتل فيها كبار المشركين، اشتدَّت عزائم المسلمين وأخذوا يتلقَّون هجمات المشركين المتوالية ويَصدُّونَها بشجاعة.

واستقبَلَ رسولُ **الله** ﷺ القبلةَ قبلَ المعركة، واتجَهَ بكلِّ قلبِه وجميعِ جوارحِه إلى ربِّه داعياً مستغيثاً: «أللهمَّ هذه قريشٌ قد أَتَتَ بخيَلائِها تُحاولُ أن تكذِّبَ رسولَك، أللهمَّ فنصرَكَ الذي وعدتَني... أللهمَّ إن تُهلِك هذه العصابة لا تُعبَدَ على الأرضِ بعد». وما زالَ يدعو ربَّه باسطاً يديهِ يستغيثُ به ويستجيرُه حتى سقطَ رداؤه عن منكبَيْهِ. فتقدَّمَ أبو بكر رضي الله عنه مُشفِقاً عليه قائلاً: «يا نبيَّ **الله**، بعضَ مناشدتِك ربَّك، فإنَّ **الله** منجزٌ لكَ ما وَعدَكَ». لكنّ رسولَ **الله** ﷺ ظلَّ في تضرُّعِه وابتهالِهِ حتى خَفَقَ خَفْقَةً مِن نُعاس رأى من خلالِها نصرَ **الله**، وانتبهَ بعدها مستبشراً، وخرجَ إلى الناسِ يحرِّضُهُم على القتالِ ويقول لهم: «والذي نفسُ محمدٍ بيدهِ، لا يقاتِلُهم اليومَ رجلٌ فيُقتَل صابراً محتسِباً مقبلاً غيرَ مُدبِر، إلا أدخَلَه **الله** الجنَّة».

وتزاحفَ النَّاسُ، ودَنَا بعضُهُم من بعض. فقال ﷺ: «قُومُوا إلى جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَواتُ والأَرْضُ». فقال عُمَيْرُ بنُ الحُمامِ الأنصاريُّ: «يا رَسُولَ **الله**، جَنَّةٌ عَرْضُها السَّمواتُ والأَرْضُ؟» قال: «نَعَمْ». قال: «بَخٍ بَخٍ». فقالَ رسولُ **الله** ﷺ: «ما يَحْمِلُكَ على قَوْلِكَ: بَخٍ بَخٍ ؟»،

قال: «لا والله يا رَسُولَ الله، إلاَّ رَجاءَةَ أن أكونَ مِن أهْلِها». قال: «فإنَّكَ مِن أَهْلِهَا». فأَخْرَجَ مِن جُعْبَتِه تَمَراتٍ، فجعلَ يأكُلُ منهنَّ، ثمَّ قال: «لئن حَيِيتُ حتى آكلَ مِن تَمَراتي هذه، إنَّها لحياةٌ طويلةٌ». فرمى بما كان معه مِن تَمْرٍ ثم قاتل حتى قُتِل.

وقاتل المسلمون قتالاً شديداً وأمدَّ الله المسلمين بالملائكة، ونَصرهُم نصراً عزيزاً مُـؤزَّراً. قال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝٩﴾ [سورة الأنفال].

إنَّ النَّاظرَ لهذه المعركة المهمَّة في تاريخ الإسلام والمسلمين لا بدَّ له من أن يستخرج بعض العِبَر منها:

١- أنَّ الغلبةَ ليست بكَثْرَةِ العَدَد والعُدَّة، بل بقوة الإيمان وحُسنِ الظنِّ بالله ﷻ وجميل التوكُّل عليه.

٢- أنَّ الله ﷻ أَخرجَ المسلمين مِن بيوتهم واستَدْرَجُهم بالقافلة ليُوصِلَهُم إلى خَيْرِهم بالنَّصر على عدوِّهم، ومَكَرَ بالكافرين ليُوصِلَهُم إلى التَّهلُكَة والعذاب، وليَقْضِيَ أمراً كان مفعولاً.

٣- أنَّ الله ﷻ إذا أرادَ نَصْرَ عبادِه أَمَدَّهُم بالملائكة وغَشَّاهم بالنعاس.

قُتِلَ في معركة بَدْرٍ من المشركين سبعون وأُسِرَ سبعون. بينما استُشهِدَ من المهاجرين ستَّةٌ واستُشْهِدَ مِنَ الأنصار ثمانية. وقد أوصى النبي ﷺ أصحابَه بأن يتجاوزوا عن كلِّ الذين صَنَعوا إليه

معروفاً، كأَصحابِ نَقْضِ الصحيفة، وبني هاشم الذين حَمُوهُ من قريش ثلاثةَ عشرَ عاماً؛ وهذا يُظهِرُ لنا وفاءَ الرسولِ ﷺ لمن أَحسَنَ إليه حتى في أشدِّ المواقفِ وأَحْرجِها.

أسرى بدر

واستشارَ رسولُ **الله** ﷺ أصحابَهُ في الأسرى. فأشار عليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه بقَتلِهم جميعاً لأنهم عذَّبوا المسلمين بمكة. وأشار أبو بكر رضي الله عنه بالعفو عنهم لأنَّ فيهم الاخوان والعُمومة وبني العَمِّ، وأبعَدُهُم قريب، قال ﷺ: «مَثلُ أبي بكْرٍ كمَثلِ ميكائيلَ يَنْزِلُ برضاءِ **الله** وعَفْوِه عَن عِبادِه. ومَثَلُهُ في الأَنبياءِ كَمَثَلِ إبراهيمَ كانَ أَلْيَنَ على قومِهِ مِنَ العَسَلِ، أَوْقدَ لَهُ قَومُهُ النَّارَ وطَرَحوهُ فيها، فما زادَ على أَن قال: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٣٦﴾[1]، ومَثَلُ عُمرَ في المَلائكةِ كمَثَلِ جبْريل يَنْزِلُ بالسَّخْطَةِ مِنَ **الله** والنَّقْمَةِ على أَعداءِ **الله** ومَثَلُهُ في الأنبيَاءِ كمَثَلِ نُوح كانَ أَشَدَّ على قَومِهِ مِن الحجَارَةِ إذ يقول: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ۝٢٦﴾[2]».

ثم ما لَبِثَ أن نَزَلَ رسولُ **الله** ﷺ على رأْيِ أبي بكرٍ وقَبِلَ الفِدْيَة، مع أنَّ القرآنَ نَزَلَ فيما بعد برأي عمر، ممَّا أبكى رسولَ **الله** ﷺ وأبا بكر. قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٦٧ لَّوْلَا كِتَٰبٌ

---

(١) سورة ابراهيم.

(٢) سورة نوح.

مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمۡ فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٦٨﴾ [سورة الأنفال].

معجزة

جلس عُمَيْرُ بنُ وَهَبٍ مع صفوان بن أُميَّة في حِجْرِ اسماعيل عليه السلام بعد وقعة بدر فقال عُمَيْر: «لولا دَيْنٌ عليَّ وعيالٌ أخشى عليهم الضَّياعَ بعدي لذهبتُ إلى محمَّدٍ لأَقتُلَه». قال صفوان ـوكان قد قُتِلَ أبوهُ وأخوهُ في بدر ـ: «عليَّ دَيْنُكَ وعليَّ عيالك، فاذْهَبْ واقتلْ محمَّداً». رضيَ عُمَيْر بذلك، فذهبَ إلى بيتِه وسَمَّمَ سيفَه، ثمَّ انطلق إلى المدينةِ فأَناخَ راحلتَه على بابِ المسجدِ ثم دخلَ. فرآهُ عُمَرُ فأَخبرَ النبيَّ ﷺ به فقال له: «أدخِلْهُ عليَّ»، فهمَسَ عُمَرُ إلى بعضِ الأنصارِ أن يجلِسوا كحَرَسٍ حولَ الرسول ﷺ فلما دخلَ عُمَيْر قال له النبي ﷺ: «ما جاءَ بكَ يا عُمير؟»، قال: «جئتُ لهذا الأسيرِ الذي في أَيديكُم فأَحسِنوا فيه». قال له: «وما بالُ السيفِ في عُنُقِكَ؟»، قال: «قبَّحَها الله من سيوف، وهل أَغْنَتْ عنَّا شيئاً؟». قال له ﷺ ـبعد أن تفرَّس في وجهِهِ ـ: «ألا تَذْكُرُ أنكَ قَعَدْتَ إلى صفوانِ بنِ أُميَّةَ في الحِجْرِ فذكرتُما أصحابَ القَليبِ من قريش، ثم قُلْتَ: لولا دَيْنٌ عليَّ وعيالٌ عندي لخَرَجْتُ أقتُلُ محمداً؟ فتحمَّلَ لكَ صفوانُ بدَيْنِكَ وعيالِكَ على أن تقتُلَني، واللهُ حائلٌ بينَكَ وبين ذلك». دُهِشَ عُمير ممَّا سَمِعَ وقال متعجِّباً: «هذا واللهِ أَمْرٌ لم يَحضُرْه إلا أنا وصفوان، فَوَاللهِ إنّي لأَعْلَمُ ما أَتاكَ به إلا الله، وأشهدُ أنكَ رسولُ الله. الحَمْدُ لله

الذي هداني للإسلام». فقال النبي ﷺ حينئذ: « فَقِّهوا أخاكُم في دينهِ، وأقرِئُوه القرآن، وأطلِقوا له أسيرَه». قال عمير: « يا رسول الله، إنّي كنتُ جاهداً على إطفاءِ نورِ هذا الدين، شديدَ الأذى لأصحابه، وأنا أُحِبُّ أن تأذنَ لي فأَقْدَمَ مكّة فأدعوهُم إلى الله ورسولهِ وإلى الإسلام لعلَّ الله يَهْديهِم». وهكذا جاء عُمَيْرُ مُشركاً ورجعَ مسلماً ومعه ولدُهُ ليكون من دُعاة الإسلام المجاهدين.

وقد كان الرسول ﷺ يَقْبَلُ من الأسير الذي ليس لديه مالٌ يَفْتَدي به نَفْسَهُ منَ الأَسْر أن يعلِّمَ عشرةً من صبيان المدينة القراءةَ والكتابةَ فيُصبحَ حُراً. وهذا يدلُّنا على ما للعلم مِن منزلةٍ عندَ الله ورسولِه ﷺ.

إجلاء بني قينقاع

بعد غزوة بدر، جَمَعَ رسولُ الله ﷺ اليهودَ في سوق بني قينقاع، فقال: « يا مَعْشَرَ يَهودَ، أَسْلِموا قبلَ أَن يُصيبكُم مِثْلُ ما أَصابَ قُرَيْشًا »، قالوا بوقاحة: «لا يغرنَّك يا محمَّد، أن لَقِيتَ قوماً لا عِلْمَ لهم بالحربِ فأَصَبتَ منهُم فرصة. إنَّا واللهِ لو حاربْتَنا لتعلمَنَّ أنَّا نحنُ الناس».

فأنزل الله تعالى: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾ ﴾ [سورة آل عمران].

كان بنو قينقاع يؤذون المسلمينَ بألسنتِهم وأيديهِم، نساءً ورجالاً. وقد حَدَثَ يوماً أن جاءت امرأةٌ مسلمةٌ إلى صائغٍ يهودي في سوقٍ لليهودِ، وجلست إليه، ومعها حليةٌ تريدُ بيعها؛ فتجمَّعَ اليهودُ حولَها يُريدون مشاكستَها ومغازلتَها، إلى أن جاءَ يهوديٌّ من خلفِها وشكَلَ لها طرفَ ثوبِها بشوكةٍ إلى ظهرِها دون أن تشعُر. فلما جاءت لتقومَ انكشفَت سوأتُها، فضحكوا منها، فصاحَت مستغيثةً، فوثبَ رجلٌ من المسلمينَ على الصائغِ فقتلَه. فشدَّ اليهودُ على المسلمِ فقتلوه. فاستصرَخَ أهلُه المسلمين، فوقَعَ الشرُّ بينَهم وبينَ اليهود. فلم يجد الرسولُ ﷺ بُدّاً من إيقافِهم عند حدِّهم وإلا تعرَّضَ المسلمونَ للخطر. فخرجَ ﷺ إليهم وحاصَرَهُم في دُورِهِم خمسةَ عشرَ يوماً متتابعة، حتى يئسوا من النجاةِ. وقذف **الله** سُبحانَهُ وتَعالى في قلوبهم الرعب. فَنَزلوا على حُكْمِ النبيِّ ﷺ، فقام **عبدالله** بن أُبي بن سلول يدافع عنهم، ويطلب العفو؛ فأجلاهُم النبيِّ ﷺ عن المدينةِ تاركينَ وراءَهم السلاحَ، وأقاموا في أذرعات على حدودِ الشام. فما لبثوا فيها حتى هَلَكَ أَكثرُهُم، وقَوِيَت شوكةُ المسلمين وهابَهُم المنافقون في المدينة والمشركون خارجها.

غزوة أُحُد

عندما فُجعَت قريشٌ بقتلاها في غزوة بدر، عقدَت النيَّة على الثأر، فجَمَعَت جُموعَها وأخذت تجهِّزُ جيشاً قوياً للانتقامِ، فأرصَدَت

كلَّ مالِ القافلةِ التي كانت سبباً في معركةِ بدر في تجهيزِ هذا الجيش. وخرجَت النساءُ مع الجيشِ تستحثُّ المحاربينَ وتحرِّضُهم على القتالِ. فساروا في ثلاثةِ آلافِ مقاتل، فيهم ثلاثة آلاف بعيرٍ، ومائتَي فرسٍ وسبع مائة دارع يريدونَ المدينةَ.

كان العبَّاسُ رضي الله عنه ـ عَمُّ النبي ﷺ ـ يَرقُبُ تَحرُّكات قريشٍ العسكرية، فأَرسَلَ إلى ابن أخيه محمَّد ﷺ يُخبِرُهُ بما تُبَيِّت له قريش، وما أَعدَّت مِن قوَّة.

فتشاورَ النبي ﷺ مع أُولي الرأي من كبارِ الصحابةِ كيفَ يَلْقَونَ عدوَّهم، وذلك حسب تعاليم القرآن ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴿٣٨﴾ ﴾ [سورة الشورى]. فارتأى النَّبي ﷺ أن يتحصَّنَ المسلمون بالمدينة، لأنَّ المسلمين أدرى بشِعابِها وأَزقَّتِها من المشركين، وبذلك يقضون على العدوِّ القضاءَ المُبْرَم. وكان هذا رأي عبدالله بن أُبيّ. ورغم وَجَاهَة هذا الرأي، إلا أنَّه يُيَسِّرُ له ولأَمثالِهِ منَ المنافقين فرصةَ الفرار من المعركة وعدم القتال.

دبَّ الحَمَاس في نفوس الشباب، وقالوا: «إنَّا لا نُحبُّ أن تَرجِعَ قريشٌ إلى بلدِها فتقول: حَصَرنا محمداً وصَحبَه في صياصي يثربَ كالأرانبِ في جحورِها، ووطَأنا أرضَهم، ورعَيْنا زَرْعَهم؛ فما تجرَّؤُوا للقائِنا، فتضعُفُ هيبتُنا، ويجرأُ الناسُ علينا». وتحمَّسَ الذين لم يشهدوا بدراً.

وقبِل الرسول ﷺ الخروجَ من المدينة إنما كارهاً. وكان اليومُ يومَ جُمُعَة، فصلَّى بالناس، وأَخبرَهُم أنَّ لهم النَّصرَ ما صَبَروا. ثم دخل بيتَهُ ولَبِسَ دِرْعَهُ وتقلَّد سَيْفَه، والنَّاسُ في جَدَلٍ في الخارج.

قال أُسَيْد بن حُضَيْر وسعد بن معاذ: «لقد رأيتُم رسولَ **الله** ﷺ يرى التحصُّن بالمدينة، فقُلتم ما قُلتم واستَكْرَهْتُموه على الخروج وهو له كاره، فرُدُّوا الأَمْرَ إليه وأَطيعُوه». فاستجابَ الناسُ، وقالوا لرسولِ **الله** ﷺ: «ما كانَ لنا يا رسولَ **الله** أن نخالفَكَ، فاصْنَع ما بدا لك». قال ﷺ لهم حينئذ: «لا ينبغي لنَبيٍّ إذا لَبِسَ لأْمَتَه أن يضعَها حتى يحكُم **الله** بينَه وبين أعدائِه، أنظُروا ما آمرتكُم فافْعَلوه وامْضوا على اسمِ **الله**، فلَكُم النَّصْرُ ما صَبَرْتُم».

وخرج رسول **الله** ﷺ بسبع مائة ليُقاتلوا ثلاثة آلاف حاقدٍ، كلٌّ منهم حريصٌ على الثأر والإنتقام. فلمَّا وصلوا أُحُداً وضع رسول **الله** ﷺ خمسين رجلاً من الرُّماة على شِعْبٍ في الجبل ،وقال لقائدهم: «انْضَحِ الخيل عنَّا بالنُّبُل لا يأتونا من خَلْفِنا، إن كانت لنا أو علينا، فاثْبُتْ مكانكَ لا نُؤتَيَنَّ من قِبَلِك».

صفَّت قريش صفوفها وجعلت على المَيْمَنَة خالدَ بن الوليد ـوكان لا يزال مشركاًـ، وعلى المَيْسَرة عِكْرِمَةَ بنِ أبي جَهْل، وعلى اللواء طَلْحَةَ بن أبي طلحة، وجعلت نساءُ قريش يَضربْنَ بالدفوف ويُنشِدْنَ الأشعار، وكان أبو سفيان قائدَ جيش المشركين.

استعدَّ الفريقان، ومَدَّ رسول الله ﷺ يدَهُ بسيفٍ وقال: «مَن يأخُذُ هذا السَّيْفَ بحقِّه؟». فقام إليه أبو دُجَانة، فقال: وما حَقُّهُ يا رسولَ الله؟ قال: «أن تَضْربَ به وُجوهَ العدوِّ حتى ينحني». قال: أنا آخذُهُ بحقِّه يا رسولَ الله، فأَعطاه إياه .

وكان أبو دُجانة رجلاً شجاعاً له عصابةٌ حمراء إذا اعتصَب بها عَلِمَ الناسُ أنه سيقاتِلُ. فأخذ السيفَ، وأخرجَ عصابتَهُ وعصبَ بها رأسَه، وجعلَ يتبختَرُ بين الصفَّيْن، فلمَّا رآه النبي ﷺ قال: «إنَّها مِشْيَةٌ يُبْغِضُها الله إلا في هذا الموضِع». فخرجَ طلحةُ -حاملُ لواءِ المشركينَ- يطلُبُ المبارزة، فبارزَه الزبير بن العوام رضي الله عنه فتغلَّبَ عليه، ثم اندلعت المعركة.

وعَدَ جُبَيْر بن مُطْعِم غُلامَه وَحْشيَّ بنَ حرب أن يَعتِقَهُ إن هو قَتَلَ حمزةَ بنَ عبد المطلب عَمَّ النبي ﷺ. فاختبأَ وَحْشيٌّ وراء صخرة، حتى إذا أدارَ حمزةُ ظهرَه إليه رماهُ بحربةٍ خرَجت من بطنِه، فوقعَ سيِّدُ الشهداءِ على الأرضِ لا حِراكَ فيه. وحَمِيَ وطيسُ القتال والمسلمون يقاتلون أكثر من أربعة أضعافهم مُصَابرين، حتى انهزمَ المشركون تاركين قَتْلاهُم.

بيد أنَّ الرُّماةَ على الجبلِ ظنُّوا أنَّ المعركةَ قد انتهت، فأرادوا النزولَ حتى يتسنَّى لهم أخذُ الغنائم، فمنعَهُم أميرُهم عبد الله بن جُبَيْر وذكَّرهُم بأمرِ النبي ﷺ، فَعَصاهُ أكثرُهم ونَزَلوا عن الجبل،

واشتغلوا بجمعِ الغنائمِ. فاغتنمَ خالدُ بن الوليد هذه الفرصة، وارتدَّ على المسلمين، ونزلَ يضربُ بسيفهِ المسلمين، حتى عادت قريشٌ إلى المعركة، وانحصرَ المسلمونَ بين أعدائِهم، فتمزَّقَت صفوفُهم، وتبعثرت قوّتُهم، وذهبَ ريحُهم، وأصيبوا. حتى أنَّ رسولَ **الله** ﷺ أخذَ حظَّهُ من شؤمِ هذه المعصيةِ؛ فشُجَّ وجهُه في وجنتَيْه، وراح الصحابةُ نساءً ورجالاً يَفْدون رسول **الله** ﷺ بأرواحِهم؛ فقد كانت نسيبَةُ أُمُّ عمارة الأنصارية. تسقي المسلمينَ الماء أثناء المعركة. فلما انهزموا، رَمَت ما بيدِها، وأخذت سيفاً، وقامت تُباشرُ القتالَ، وتذودُ عن النبي ﷺ بالسيفِ حتى أَصابتها الجراح. فما كان يلتفتُ النبي ﷺ يميناً أو شمالاً إلا رآها تذودُ عنه.

أما أبو دجانة فقد اتَّخذَ مِن ظهره دِرْعاً يحمي به رسولَ **الله** ﷺ حتى أصبحَ ظهرَهُ كالقُنْفُذ مِن كثرة النِّبال.

وأما رسولُ **الله** ﷺ فقد لحقَه أُبيٌّ بن خلَف وهو يقول: « أينَ محمَّد؟ لا نجوتُ إن نجا». وعلى رغمِ ما أصابَ الرسولَ ﷺ من جراحٍ وإرهاقٍ فقد أخذَ حربةً وطعنَ بها هذا المجرمَ طعنةً في عنقهِ ارتدَّ بها على فرسِه ليموتَ على الطريق. والتفَّ كبارُ الصحابةِ حولَ النبي ﷺ وصعدوا به الجبل حتى يحموه من العدوِّ.

وطارت قريشٌ فَرحاً بنصرها، وانطلقت هِنْدُ مع بعض نساء قريش يُمَثِّلْنَ بقتلى المسلمين؛ فبَقَرت بَطْنَ حمزة ولاكَت كَبِدَهُ

بـأسنانها.

إنَّ في غزوة أُحُد موعظة كبرى للمسلمين. إذ هي تفسير عملي لقوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٢٥ ﴾ [سورة الأنفال]. ومعنى هذا أنَّ ضرر الذنب والمعصية لا يصيب فقط الذين عملوه بل يصيب المجموعة المشتركة معهم. وغزوة أُحُد ترينا أنَّ مخالفة أمرِ النبي ﷺ فيها الهلاك.

لقد أخذ المسلمون درساً بليغاً في الطاعة، ودفعوا ثمناً باهظاً لم ينسَوه طوال حياتهم. وكان هذا الدرس سبباً في انتصاراتهم في حروبهم فيما بعد.

غزوة بني النضير

حقد اليهود على الإسلام والمسلمين، وتآمروا على النبي ﷺ ليقتلوه. فقد ذهب إليهم رسول **الله** ﷺ يطلب منهم مساعدته في دَفْعِ دِيَة رجلَيْن من بني عامر، وكان بين بني النضير وبني عامر عقد وحلف. فتظاهروا بالرِّقَّة وأَضمَروا في نُفوسِهِم شراً. أضمروا اغتيالَ النبي ﷺ ؛ وذلك أنَّ رسولَ **الله** ﷺ كان جالساً إلى جانب جدار، فأرادوا أن يلقوا على رأسه صخرةً مِن فوق الجدار لقَتْلِه.

وجاءَهُ الخبر من السماء بما أراد القوم، فترك رسول **الله** ﷺ أصحابه وانسحبَ مُتظاهِراً بأنه خرج لبعض شأنه. ولكنه رجعَ إلى المدينة ثم أرسلَ إليهم رجلاً شجاعاً اسمه محمد بن مسلمة،

وقال له: «إذهب إلى بني النضيرِ وقُل لهم: إنَّ رسولَ الله أرسَلَني إليكُم أن اخرجوا من بلادي، لقد نَقَضْتُم العهدَ بما هَمَمْتُم به من الغدر بي»، وأَمهَلَهُم عشرةَ أيام. ففُوجِىء بنو النضير وارتبكوا وندموا على ما همُّوا به، ولكن لا ينفع الندم.

وجهَّزَ بنو النضير أَنفُسَهُم للجلاء، غيرَ أنَّ عبد الله بن أُبيّ (زعيم المنافقين) أرسلَ إليهم ألاّ يخرجوا من ديارهم، وأنَّه سيُرسِلُ إليهم أَلفَيْنِ من قومِهِ يدخلون معهم حصونَهم ليُساعِدوهُم على حربِ النبي ﷺ إن هو هاجَمَهم. فصدَّقوه وهو كاذب. عندها قال كبيرُهُم حُيَيُّ بنُ أَخْطَب: «كلا لن نخرجَ من ديارنا، وليفعلْ محمدٌ ما يشاء، فسنُحْكِم حصونَنا وعندنا من الطعامِ ما يكفينا سنة، ولن يحاصِرْنا محمدٌ سنةً كاملة». وانْقَضَت مهلة الأيامُ العشرةُ ولم يَخرجوا.

وعبثاً انتظروا مساعدةَ ابنِ أُبي، إلى أن يئِسوا من النجدة، فأرسلوا إلى رسول الله ﷺ يطلبون الإذن بالخروج، وصالَحَهم النبي ﷺ على أن يخرُجوا ولكلِّ ثلاثةٍ بعيرٌ واحد يَحملونَ عليه ما شاؤوا من مالٍ وطعام. وهكذا خَلَّفوا وراءَهم مغانِمَ وأعتدةً كثيرة أفادت المسلمينَ في حروبِهم فيما بعد.

غزوة الخندق أو غزوة الأحزاب

خرجَ وَفْدٌ من يهود المدينة إلى مُشركي قريش يحرِّضونَهُم على قتال المسلمين، ويَعِدُونهم المُعَاونَة في هذا الأمر. ثم طافوا على

«غطفان» وغيرها من قبائل العرب لتَألْيبِهم على المؤمنين.

جهَّزت قريشٌ وأَتباعُها أربعةَ آلاف مقاتل، وجهَّزت بقيَّةَ القبائل ستَّة آلاف، فكان المجموع عشرةَ آلاف مُقاتلٍ مع إبِلِهِم وخَيْلِهِم. وزحفَ هذا الجيش الجرَّار إلى المدينة.

وصلت أنباءُ هذه الحشود التي بدأت بالتجمُّع إلى رسول **الله** ﷺ. فجمعَ أصحابَه يستشيرُهُم فيما يصنع بهذا العدد الهائل من المحاربين. فأَشارَ عليه سلمان الفارسي رضي الله عنه بحيلة فارسيَّة لا يعرفُها العرب؛ وهي أن يحفر المسلمون خندقاً يتحصَّنون به من العدو، فلا يستطيعُ اقتحامَ المدينة عليهم من الجهة الشمالية المفتوحة. أما الجهات الأُخرى، فكانت محصَّنةً بالبيوت والنخيل المتشابك.

وفعلاً قامَ المسلمونَ بحفرِ الخندقِ والرسول ﷺ يعملُ معهم بنقل التراب. وبعد أن تم حَفْرُ الخندق، أقام جيش المسلمين داخِلَه، حامياً ظهره إلى جبلٍ مُطِلٍّ على المدينة، وكان عدد المسلمين يومها ثلاثة آلاف.

فلما وصلَ جيشُ المشركين فوجئوا لمكيدة الخندق التي لم تخطر لهم على بال، ولم يكن أمامهم سوى التراشق مع المسلمين بالنِّبال. ولما طالَ عليهمُ الوقتُ، اقتحمَ بعضُ فرسانِهم الخندقَ، فبرز عليُّ بنُ أبي طالب لعمرو بن وُدٍّ فقتلَه، وهرب الباقون.

ولما أقبل الليل، وضع النبيُ ﷺ حَرَساً على الخندق حتى لا يقتحمَه المشركونَ بالليل، وكان يحرُسُ بنفسهِ ثغرةً على رغم شدَّةِ البردِ، كما كان يبشِّر أصحابَه بالنَّصر ويَعِدُهُم الخير. وهنا قال منافقو المدينة: «يعدُنا محمدٌ كنوزَ كسرى وقيصر وأحدُنا لا يستطيعُ التبرُّزَ من شدَّةِ الخوف!». فسجَّلَ القرآنُ قولهَم هذا بالآية: ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ ﴾ [سورة الأحزاب]. وانسحبوا من المعركة بحجَّةِ أنَّ بيوتَهُم عورةٌ يخافون عليها من العدو، فأجابَهُم القرآن: ﴿ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ ﴾ [سورة الأحزاب].

واشتدَّ الحصارُ على المسلمين، وازدادَ الخوفُ شيئاً فشيئاً، حتى بلغَ أَوْجَهُ عندما علموا أن بني قُريظةَ نقضَت عَهْدَها وانضمَّت إلى المشركينَ. وانكشفَ المسلمونَ من خلفِهم، فدبَّ الخوفُ في قلوبِهم وزاغَت أبصارُهم، وزُلزِلوا زِلزالاً شديداً.. فكان مِن جُملةِ دعائِهم "اللهمَّ استُر عوراتِنا وآمِن روعاتِنا".

في هذا الوقت جاء نُعَيْمُ بنُ مسعود الأَشْجَعي إلى النبي ﷺ وقال له: يا رسُولَ الله، إنِّي قد أَسْلَمْت، وإنَّ قَوْمي لم يَعْلَموا بإسلامي، فَمُرْني بما شِئْت؛ فقال رَسُولُ الله ﷺ: «إنَّما أنت فينَا رَجُلٌ واحِدٌ، فَخَذِّلْ عَنَّا إن استَطَعْتَ، فَإنَّ الحَرْبَ خُدْعَةٌ»؛ وهنا فَتَقَ الله الحيلة لنُعَيْم، فَذَهَبَ لتوِّه إلى بني قُريظَة الذين نَقَضوا العهد في أَحْرَجِ

المواقف وأَصعَبِها.

لمّا رآهُ اليهودُ أكرَموهُ لصداقتِهِ معهُم، ورحَّبوا به ولم يعرِفوا أنَّه قد أسلمَ، فذكَّرَهُم بمودَّتِه وحُسْنِ صُحبَتِهِ ونُصْحِهِ لهم، ثم ذكر لهم أن قريشاً ربما لا تطيقُ المقامَ طويلاً في حصارِ المسلمينَ لشدَّةِ البردِ فتتخلَّى عنكم فيُنَكِّلُ بكم محمدٌ وأصحابُهُ أبشعَ تنكيلٍ كما نكَّل بمن قبلَكُم، لهذا أنصحُ بألاَّ تقاتِلوا معهُم حتى تأخذوا منهم رهائنَ تكونُ بأيديكُم، حتى لا يتركوكُم وحدكُم في المعركةِ، فتكونوا كبشَ فداء، وأوصاهُم بكتمانِ حديثهِ. اقتنعَ بنو قريظة برأيه وشكروا له نُصْحَه.

ثم ذهبَ إلى قريش، فأسرَّ لهم أن قريظةَ ندِموا على مافعَلوا مِن نَكْثِ العَهْدِ مع محمد، وأنهم عامِلُونَ لاسترضائِه وكسبِ مودَّتِه. فقالوا له: «أَيُرضيكَ يا محمد، أن نُسَلِّمَكَ سبعين شريفاً من أشرافهم لتَضرِبَ أعناقَهم وترضَى عنا؟ وها هُم مرسلونَ إليكم بذلك فاحذَرُوهُم وإياكُم أن تسلِّموا أحداً. ولا تذكُروا مما قلتُ لكم حرفاً».

لقد أوقعَ الشكَّ في نفوسِ الفريقينِ ونزع الثِّقَةَ مِن بينهما.

أصبح الصباح، فأرسل أبو سفيان وفداً لقريظة يدعوهم فيها للقتال، فاعتذروا لأنَّه يومُ السبت، وأنَّهم ما أُصيبوا بغَضَبِ **الله** إلا من الإعتداء فيه. ثم طلبوا منهم رهائنَ حتى لا يذهبوا ويَتْرُكوهم وَحْدَهُم أمام محمَّد عليه الصلاة والسلام وصَحْبِه.

وبهذا الإعتذار وهذا الطلب تحقّقت قريش أنَّ ما قال نُعَيْمُ هو الصدق. وجاء دعاءُ رسول الله ﷺ يُسرِّعُ بالفرج: «اللَّهمَّ مُنْزِلَ الكتاب، سَريعَ الحساب، اهْزِمِ الأحزاب، أللَّهُمَّ اهزِمهُمْ وزَلْزِلْهُم».

وأرسل الله سبحانه وتعالى ريحاً باردةً في ليلةٍ مُظْلِمَةٍ اقتلَعَت خيامَهُم، وأَوْقَعَت قُدورَهُم وشرَّدَت إبلَهم. فَخَافَت قريش ومَن معها أن يهاجِمَهُم محمَّد مع بني قريظة، فأَجمَعوا على الرحيل قبل أن يُصبحَ الصباح، وكَفَى الله المؤمنين القتال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا ١١٠﴾ [يوسف].

ارتاحَ المسلمونَ بعد ذهابِ الأحزاب، ورجعوا مع رسول الله ﷺ إلى المدينَةِ يتحدَّثونَ بنعمةِ الله فرحينَ مستبشرينَ. وعندما همَّ ﷺ بخَلْعِ لباسِ الحرب، إذا بجبريل عليه السلام يقول له: لم نخلع نحنُ الملائكةُ بَعدُ لباسَ الحرب يا محمد، فَالْحَقْ ببَني قُرَيْظَةَ وطَهِّر منهم الأرض. وصدَقَ جبريلُ عليه السلام، فلم يعُد ينفعُ معهم العهودُ ولا تربطُهُم المواثيقُ ولا يأمنُ المسلمونَ جانبَهم أيامَ الشِّدَّة. فقال النبي ﷺ لأَصحابِهِ: «لا يُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ منكُم العَصْرَ إلا في بني قُرَيْظَة»، فانطلقوا مسرعين، واللواء بيَدِ البطلِ الهُمَامِ علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

فلمَّا رأَتْهم قريظةُ ألقى اللهُ الرعبَ في قلوبهم بما كسَبوا، وأرادوا التَّنَصُّلَ من فِعْلَتِهم القبيحة، ولكن أنَّى لهم ذلك وقد ثَبَتَ عليهم الغَدْرُ والخيانة. فلمَّا عَلِموا أن لا مَناصَ منَ الحرب، تحصَّنوا

بحُصونِهِم خمساً وعشرينَ ليلة. ولمَّا ضاقَ بِهم الحالُ رضوا بحُكم رسول الله ﷺ.

إلا أنَّ رسول الله ﷺ حكَّم فيهم سعدُ بن مُعاذ، فقال النبي ﷺ: «قوموا إلى خَيْرِكم أو سيِّدِكم». فقال: «يا سَعْدُ، إنَّ هؤلاءِ نَزَلوا على حُكْمِك».

قال: «فإنِّي أَحكمُ فيهم أن تُقتلَ مُقاتِلَتُهُم وتُسْبَى ذَراريهم».

قال (ﷺ): «حَكَمْتَ بِحُكْمِ الله أو بِحُكْمِ المَلِك».

ونُفِّذَ حُكْمُ سعد بن معاذ، وغَنِمَ المسلمون غنائمَ كثيرة، فَقَسَمَهُ رسولُ الله بين المهاجرين، كما أعطى النِّساءَ اللاتي يُمَرِّضْنَ الجرحى حِصَّتَهُنَّ. وأَراحَ الله المسلمين من شرِّ مُجَاوَرَةِ اليهود، ولم يَبْقَ إلا بقيَّةٌ مِن كبارهم بخَيْبَرَ الذين كانوا السَّبَبَ في إثارة الأحزاب على المسلمين. قال تعالى:

﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾ [سورة الأحزاب].

وقعة الحديبية

حدثَت في شهر ذي القِعْدَة مِنَ السَّنة السادسة للهجرة؛ حيث رأى ﷺ في نومِهِ أنه دخلَ وأصحابُه المسجدَ الحرام آمنينَ محلِّقين شعورَهم ومُقصِّرين، فأخبَرَ المسلمينَ أنه يُريدُ العمرة، كما أخبرَ

الأعرابَ من حولِ المدينة؛ ولكنَّ الأعرابَ أبطأوا عليه لأنَّهم ظنُّوا أنَّ قريشاً لن تتركَهم يعودون سالمين إلى بلدِهم. فخرج ﷺ بمن معه من المهاجرين والأنصار وعَدَدُهُم ألفٌ وأربع مائة، معهُم سيوفُهُم فقط لأنَّهم لا ينوون قتالاً، ومع هذا فقد أَجمَعَت قريش على صَدِّهِم عن دخولِ مكة، ودَفَعَت خالدَ بنَ الوليد في مائتَي فارس ليَمْنَعُوهُم منَ التقدُّم، وبما أنَّ رسول **الله** ﷺ لا يُريدُ الحربَ فقد سلكَ طريقاً آخرَ حتى يَتَفادى خالداً ومَن معه، فرَجَعَ خالد وأَخبَرَ قريش بما فعلَهُ المسلمون.

فلما وصل ﷺ إلى ثَنِيَّةِ المِرار ـ وهو مكانٌ يبعد عن مكة غرباً حوالي ٢٤ كلم ـ بركَت ناقَتُه. فزجروها فلم تَقُم، فظنُّوها قد حَرَنَت. فقال عليه الصلاة والسلام: «ما خَلأَتِ القَصْواء وما ذاكَ لها بخُلُق، ولكن حَبَسَها حَابِسُ الفيل»، ثُمَّ قال: «والذي نَفْسي بيَدِهِ لا يَسْأَلوني خُطَّةً يُعَظِّمونَ فيها حُرُماتِ **الله** إلاَّ أَعْطَيْتُهُم إيَّاها»، ثم زَجَرَ ناقتَه، فوَثَبَت وسَارَت حتى نَزَلَ بأقْصى الحُدَيْبِيَة.

جاء بُدَيْلُ بن وَرْقَاء عند رسول **الله** ﷺ وكان قومُه ناصِحين له، وأخبره بعزمِ قريش على مَنْعِه من دخول البيت. فقال رسول **الله** ﷺ: «إنَّا لم نَجِئْ لقتالِ أحد، ولكنَّا جِئْنا مُعتمِرين». قال بُدَيْل: «سأُبَلِّغُهُم ما تقول». فسمعت قريش منه ثم أرسلَت الحُلَيْس بنَ علقمة وكان من قوم يعظِّمون الهَدْي؛ فأَطلَقَ النبي ﷺ الهَدْيَ في وجهه، واستقبله

الناس يُلَبُّون. فعاد الرجل وهو يقول: «سبحان **الله**، ما ينبغي لهؤلاء أن يُصَدُّوا عن البيت. أيَحُجُّ الناسُ ويُمنَعُ عن البيت ابن عبد المطلب؟ هَلَكَت قريشٌ وربُّ الكعبة، إنَّ القومَ أَتَوا معتمِرين».

لمَّا سمِعَت قريشٌ ذلك لم يُعجِبْها قَوْلَه. فأرسلوا إليهم عروة بن مسعود الثقفي، سيِّدَ أهل الطائف، يهدِّدُ رسول **الله** ﷺ بقريش ويتَّهِم الصحابة بالإنكشاف عنه إن هاجَمَتْهُ قريش. فهاجمه أبو بكر رضي الله عنه قائلاً: ويحك! نحنُ ننكشِف عنه؟ وكان المُغيرة بن شُعبة يَضرِبُ يَدَ عروة كلَّما أرادَ رَفْعَها إلى لحيةِ رسولِ **الله** ﷺ في أثناءِ الكلام.

فرجعَ الرجلُ وقد رأى حُبَّ الصَّحَابة لرسول **الله** ﷺ وكيف كانوا يتهافتون على ماء وَضُوئِه يتمسَّحون به، وإذا تكلَّموا خَفَضوا أصواتَهُم عنده، وغَضُّوا أَبصارَهُم إجلالاً وإكباراً. فقال عُرْوَةَ: «و**الله** يا مَعْشَرَ قريش، جئتُ كسرى في مُلْكِهِ وقَيْصَرَ في عَظَمَتِه، فما رأيتُ مَلِكاً في قومِه مِثْلَ محمَّد في أصحابه. ولقد رأيتُ قوماً لا يُسلِمونَه لشيءٍ أبداً، فانظروا رأيكم، فإنه عَرَضَ عليكم رُشداً فاقبَلوا ما عَرَضَ عليكم، فإنِّي لكم ناصح». وحاول بعضُ الطائشين مِن قريش استعجالَ الحرب فتسلَّلوا ليلاً إلى مُعَسْكر المسلمين، فأُلْقِيَ القبضُ عليهم، ثم أَطْلَقَ النبيُّ ﷺ سراحَهُم.

حاول رسول **الله** ﷺ أن يَثْنِيَ قريشاً عن عزمها حتى لا يذهب سَفَرُهُم الطويل الشَّاق سدى، فأرسل إليهم صهره عثمان بن عفان رضي الله عنه

ليقنعهم بقصده. كما أمر عثمان ﵁، أن يبشِّر المستضعفين من المؤمنين في مكة بالفرج القريب.

دخلَ عثمانُ ﵁ مكَّة في جوار أحدِ معارفه، وعَبَثاً حاول إقناعَهم فلم يَستَجيبوا إليه، ثم طلبوا منه أن يطوفَ بالكعبةِ، فامتنَعَ قائلاً: «لا أطوفُ ورسولُ **الله** ﷺ ممنوعٌ». فحَبَسوهُ عن الرجوعِ. فشاعَ عندَ المسلمينَ أنَّ عثمانَ قد قُتِل. فقال ﷺ حينئذ: «لا نَبْرَحُ حتى نُناجِزَهُم الحرب».

استاء رسولُ **الله** ﷺ من غَدْرِ قريش، وهو الذي جاءَ لا يريدُ حرباً بل عُمْرَةً وسلاماً. فدَعا الناسَ ليُبايعوهُ على القتالِ تحت شجرة كانت هناك. (أمر عمر بن الخطاب ﵁ بقَطْعِها زمَنَ خلافته لما رأى من تبرُّك الناس بها خشية عودتهم إلى الوثنية) وقد سُمِّيَت هذه البَيْعَة ببَيْعَةِ الرِّضْوان. بايعوهُ على الموت. فشاعَ أمرُ هذه البيعةِ في قريش فداخَلَهم منها رعبٌ عظيم، فأرسلت إلى المسلمين سُهيل بن عمرو ليكلِّم النبي ﷺ فيَعقِدَ صُلحاً ويعتذر عمَّا وقع. فقال: «يا محمَّد، إنَّ الذي حَصَلَ ليس من رأي عقلائنا بل شيءٌ قام به السُّفَهاء فابْعَث إلينا بمَن أَسَرْتَ». فقال ﷺ: «حتى تُرسِلُوا مَن عِندَكُم». عندها أَرسَلوا عثمان بن عفان.

عرض سهيل شروط قريش، منها الجائرة ومنها الحسنة.

١ ـ وقف الحرب بين المسلمين وقريش عشر سنوات.

٢ ـ مَن جاءَ المسلمين من قريشٍ يردُّونَه لقريش، ومن جاءَ قريشاً من المسلمينَ لا يُلزَمون بردِّه.

٣ ـ يرجِعُ المسلمونَ من غيرِ عُمرَةٍ، ثم يأتون العامَ المقبل، فيدخلون مكَّة بعد أن تخرج قريشٌ منها، ويمكُثون فيها ثلاثةَ أيام فقط، ليس معهُم من سلاحٍ إلا السيوفُ في قِرابِها.

٤ ـ مَن أراد أن يدخلَ في عهدِ محمَّد من العربِ دخلَ فيه. ومَن أرادَ أن يدخُلَ في عهدِ قريش دخلَ فيه.

كُتبت شروط الصلح في نسخَتَيْن: واحدةٌ لقريش، والأُخرى للمسلمين. وكان الإمام علي ﵁ كاتبُ هذه المعاهدة. وقد أَمْلى عليه رسول **الله** ﷺ قائلاً: «بسم الله الرحمٰن الرحيم»، قال سهيل: «أكتُب باسمِكَ اللهمَّ، فإنَّا لا نعرِفُ الرحمٰن»، فأَمر النبي ﷺ بكتابة ما قال سُهيل. فكتب، ولكن على مضض. ثم قال ﷺ: «هذا ما صالَحَ عليه محمدٌ رسول **الله**». فقال سهيل: لو نعلمُ أنَّكَ رسولُ **الله** لما خالفناك ولما صَدَدْناكَ عن البيت، أكتُبْ محمَّد بن عبد **الله**». فأمر ﷺ علياً أن يمحوَ ذلك ويكتُب مكانها: محمد بن عبد **الله**. وهنا ضاق عليٌّ ذرعاً بسهيل، ورفضَ أن يَمْحوَها، فمحاها النبي ﷺ بيده.

أثناءَ كتابةِ المعاهدة، جاء شابٌّ من قريش اسمُه أبو جَنْدَل هارباً من مكة، وهو مقيَّد اليدين؛ فقد كان حبيساً في مكة مَنَعَهُ

أبوه من الهجرة. هذا الشاب هو ابن سهيل نفسه الذي عقدَ المعاهدة مع النبي ﷺ فقد هرب بقيوده إلى المسلمين ليَحمُوه. ولكنَّ رسولَ الله ﷺ حافظَ على عهده. كان أَبوهُ يضربُهُ بشدَّة أمام المسلمين، ويتمسَّكُ بحقِّه بالمعاهدة، والرسول ﷺ يقول: «يا أبا جَنْدَل، اصْبِرْ واحْتَسِب، فإنَّ الله عَزَّوَجَلَّ جاعِلٌ لَكَ ولمن معكَ مِن المُسْتَضْعَفينَ فَرَجًا ومَخْرَجًا. إنَّا عَقَدْنَا بَيْنَنا وبَيْنَ القَوْمِ صُلْحًا، فأَعْطَيْناهُم على ذلك وأعطَونا عليه عَهْدًا، وإنَّا لن نَغْدِرَ بِهِم». لله ما أَعدَلَ الإسلام، يتقبَّلُ المرارة والعذاب في سبيل المحافظة على العهود.

شعر المسلمون بالضِّيق الشَّديد من هذه المعاهدة، إلا أبو بكر الصدِّيق فقد كان ينظُرُ بنَظَرِ رسول الله ﷺ.

لمَّا عرضَ سهيلٌ شروطَ الصلح، ولم يَبْقَ إلا الكتابة والتوقيع، وَثَبَ عمر إلى أبي بكر وقال: «يا أبا بكر أَلَيْسَ برسول الله؟»، قال: «بلى». قال: «أَوَ لسنا بالمسلمين؟» قال: «بلى». قال: «أَوَ ليسوا بالمشركين؟» قال: «بلى». قال: «فَعَلامَ نُعطي الدَّنِيَّةَ في دينِنا؟» (أي نقبل هذه الشروط الجائرة). قال له أبو بكر حينئذ: «يا عمر، إلزَمْ غَرْزَه[١] فإني أَشهَدُ أنه رسولُ الله». قال عمر: «وأنا أشهدُ أنه رسولُ الله»، ثم ذهب إلى النبي ﷺ فقال له مثل ذلك. فأجابهُ النبيُ ﷺ أخيراً: «أَنا عَبْدُ الله ورَسولُه، لَن أُخالِفَ أَمْرَهُ ولَن يُضَيِّعَني».

ثم أَمَرَ النبيُّ ﷺ المسلمين أن يَحلِقُوا رُؤوسَهُم ويَنْحَروا الهَدْيَ

(١) أي أمره.

(أي الجِمَال والبقر التي أَعدُّوها للنَّحر في العُمْرة)، ويتحلَّلوا من إحرامهم (أي يخلعوا ثياب الإحرام). فاغتمَّ المسلمون لهذا كثيراً، حتى أنَّهم لم يُبادِروا بالإمتثال، (أي لم ينفِّذوا ما أَمَرَهُم به رسول **الله** ﷺ). فدخل عليه الصلاة والسلام على زوجَتِه أُمِّ سَلَمَة ﵂ آسفاً، فذَكَرَ لها ما لَقِيَ من الناس. فهوَّنَتْ أُمُّ سلَمَة ﵂ عليه الأمرَ وقالت: «أُعذُرهُم يا رسولَ **الله**، فقد حَمَّلتَ نفسَكَ أمراً عظيماً في هذا الصُّلْحِ، فرجَعوا مِن غيرِ فتح، فهم لذلك مكروبون. ولكن اخرُج يا رسول **الله**، وابدَأْهُم بما تُريد، ولا تكلِّمهم؛ فإذا رأوكَ فعلتَ اتَّبَعوكَ».

وفعلاً عملَ ﷺ بمَشورَتِها، فخرجَ إلى هَدْيِهِ فَنَحَرَهُ، ودعا بالحلاَّق فحَلَقَ رأسَه. فلما رآه المسلمونَ تَواثَبوا على الهَدْي فنَحَروه، وحَلَقوا رؤوسَهُم، وقُضِيَ الأمرُ على أَحسَنِ ما يكون. وهذا يعلِّمنا أنَّ القدوةَ العمليةَ خيرٌ من القَوْلية وأبلَغُ أثراً في النفوس من الخطب والنصائح الكلامية.

من هي أُم سلمة رضي الله عنها ؟

أُمُّ سلَمَة ﵂ هي زوجةُ أبي سلمة ﵁ ابن عمَّةِ رسول **الله** ﷺ وأَخُوه من الرضاعة، وأوَّل من هاجر إلى الحبشة. كان رجلاً شجاعاً خَلوقاً، شارك في العديد من الغزوات. فلمَّا تُوُفِّيَ، بَكَتْهُ أُمُّ سلَمَة كثيراً لما كان عليه من طِيبَةٍ وشَجَاعَة.

عَن أُمِّ سَلَمَةَ زَوْج النَّبيِّ ﷺ، قَالَت: «سَمِعْتُ رَسُولَ **الله** ﷺ يقولُ:

ما مِن عَبْدٍ تُصيبُهُ مُصيبَةٌ فيقول: إنّا للهِ وإنّا إليه راجعُون، اللَّهُمَّ أَجُرْني في مُصيبَتي واخْلُفْني خَيْرًا منها، إلا أَجَرَهُ الله في مُصيبَتِهِ وخَلَفَ لَهُ خَيْرًا مِنْهَا». قالت: «فَلَمَّا تُوفِّيَ أبو سَلَمَة، قلت: مَن خَيْرٌ مِن أبي سَلَمَةَ صاحِبِ رَسُولِ الله ﷺ؟ قالت: ثُمَّ عَزَمَ الله عَزَّ وَجَلَّ لي فَقُلْتُها: اللَّهُمَّ أْجُرْني في مُصيبَتي واخْلُفْ لي خَيْرًا منها، قَالَتْ: فَتَزَوَّجْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ». فكانت هي أيضاً ميمونَةَ الرِّفقَةِ رشيدةَ الرأي.

نتائج صلح الحديبية

أثناء عودة النبي ﷺ من الحُدَيْبِيَة، نزلت «سورة الفتح». وقد وَصفَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هذه المُعاهَدَةَ (بالفتح المبين). وبالفعل فقد كانت هذه المعاهدة فاتحة خير للمسلمين، أَوْصَلَتْهُم إلى فَتْحِ مكة، بالرغم من أنَّ المسلمين رجعوا من الحديبية بلا فَتْحٍ ولا عُمْرَة.

لم تستطع قريش المحافظة على عهودها ومواثيقها، فأَمْكَنَت نبيَّ الله منها، حتى قال أبو بكر الصديق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «ما كان فتحٌ في الإسلام أَعظَمَ بركةً من فتحِ الحُدَيْبية، ولكنَّ النّاسَ قَصُرَ رأيُهم عما كان بين محمَدٍ وربِّه، والعبادُ يَعْجَلون والله لا يَعْجَلُ لِعَجَلَتِهِم حتى تبلُغَ الأمورُ ما أراد».

أتاحَت هذة المعاهدةُ اختلاطَ المسلمينَ بالمشركينَ؛ وذلك بزوال العوائق بين الطرفَيْنِ، فخالطَتْ بشاشَةُ الإسلام قلوبَ كثيرينَ

منهم فأَسلموا، فكان هذا نوعاً من الفتحِ، فتحَ قلوباً عمياء. فدخلَ في الإسلام في خلال هاتين السنتين أكثرَ مما دخلَهُ من أوَّلِ الدعوةِ إلى يوم الحديبية.

تمكَّن أبو بصير الثقفي من الفرارِ إلى رسول **الله** ﷺ، فأرسلت قريش في إثرِهِ رجلَيْنِ يطلبانِ تسليمَهُ حسب المعاهدة. فقال أبو بصير: «أتردّني إلى الكفَّار يفتنونَني في ديني بعد أن خَلَّصَني **الله** منهم؟»، فقال ﷺ: «إنَّ **الله** جاعلٌ لكَ ولمن معك فَرَجاً ومَخْرَجا». فلم يَجِد بُدّاً من طاعتِه. فرجعَ مع الرجلين وقلوبُ المسلمينَ تتفطَّرُ أسىً عليه.

وفي الطريق إلى مكة وصلوا ذا الحُلَيْفَة، فاحتالَ على أَحَدِ الرجلَيْنِ بأن يُرِيَهُ سيفَه، وذلك بعد حديثٍ طويل اطمأنَّ به الرجلُ ونَسِيَ أنه مع أسير. فقدَّمَ له السيفَ بحركةٍ لا شعورية، فما كان من أبي بصير إلا أن أَخَذَهُ مثل لَمْحِ البَصَرِ وضَرَبَ به الرجلَ فقَتَلَه، فذُعِرَ الآخرُ وأطلقَ ساقَيْهِ للريح من شدَّة الخوفِ والدهشة.

ورجع أبو بصير إلى المدينة، وقال: «يا رسول **الله**، وفيْتَ بذمَّتِك، أَسْلَمْتَني إلى القوم، وامْتَنَعْتُ بديني أن أُفتَنَ فيه أو يُعبَثَ به». فقال النبي ﷺ: «وَيْلُ أُمِّه، مِسْعَرَ[1] حَرْب، لو كان له أَحَدٌ».

ذهب أبو بصير إلى مكان تَمُرُّ به قوافل قريش في طريقها إلى الشام فأَقامَ به. وكان كلَّما أسلَمَ واحدٌ من مكة يهرُبُ إلى أبي بصير،

(١) المِسْعَر: هو قطعة الحديد التي يحركون بها النار لإشعالها.

حتى تجمَّعَ منهم جمعٌ غفير ـ منهم صاحبنا أبو جندل الذي كان يستغيثُ بالمسلمين في الحُدَيْبِيَة ليحموهُ من أبيه وقريش ـ وكلَّما مرّت قافلةٌ لقريش غَزوها حتى قطعوا الإمداد عن مكة.

فلما ضاقَت قريشٌ بهم ذرعاً، ولم يعلموا كيف يتخلَّصون منهم، أرسلوا لرسولِ **الله** ﷺ ينشادونَه الرحم، ويستغيثونَ به في إبطالِ هذا البند من المعاهدة، وأن يَضُمَّ إليه من هاجرَ مسلماً.

وهكذا أزاحَ **الله** هذه الغُمَّة عن المسلمين، وقلبَ الأُمور رأساً على عقِب؛ فبعد أن كانَ المستضعَفونَ يستغيثون من قريش، أصبحت قريشٌ هي التي تستغيثُ مِن المستضعَفين. وجاءَ الفرجُ الذي بَشَّر به رسولُ **الله** ﷺ.

مراسلة الملوك والحكام

قوي مركز المسلمين بعد صلح الحديبية مما أتاح لرسولِ **الله** ﷺ أن يُرسلَ الكتبَ إلى الملوكِ يدعوهُم فيها إلى الإسلام، وكان يختِمُ هذه الرسائلَ بخاتمٍ من فِضَّة منقوشٍ عليه (محمد رسولُ **الله**).

أرسلَ إلى قيصر ملك الروم، وإلى أمير بُصرى، وإلى الحارث بن أبي شمر ملِك البلقاء، وإلى المقوقِس أمير مصر، وإلى كسرى ملِك الفرس، وإلى المنذر بن ساوى ملك البحرين، وإلى مَلِكَي عُمان (جَيْفَر وعَيَّاد)، وإلى هوذة بن علي ملك اليمامة، وإلى النجاشي ملك

الحبشة.

وقد كانت رسائل رسول الله ﷺ متشابهة تقريباً تدعو إلى توحيد الله ﷻ وعبادته.

رسالة الرسول ﷺ إلى هرقل

بسم الله الرحمٰن الرحيم

من محمَّد عبدالله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم. سلامٌ على مَنِ اتَّبعَ الهدى. أسْلِمْ تَسْلَمْ يُؤْتِك الله أجرَك مرَّتَيْن. فإن تولَّيْتَ فإنَّ عليك إثْمُ الأريسيين: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [سورة آل عمران].

(والأَريسيون فرقةٌ مِنَ النَّصارى من آريوس يؤمنون بالله الواحد).

أما قوله يُؤتِك الله أَجْرَك مرَّتَيْن: فالأجر الأول لإيمانه بعيسى عليه السلام، والأجر الثاني لإيمانه بمحمَّدٍ رسول الله ﷺ. قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾﴾

[سورة القصص].

دَعا هرقل بعضَ العرب مِن قريش ـ كانوا يومئذٍ في تجارةٍ بالشام ـ وعلى رأسِهم أبو سفيان، وسألهَم: أيُّكُم أقربُ نسباً لهذا

الذي يزعُم أنه نبيٌّ؟ فقال أبو سفيان: أنا أقربُهم نَسَباً. فأَدناه قيصرُ أمامَ الجميع وقال لأصحابِهِ بوساطةِ التَّرجُمان: جعلتُكم خلفَه حتى لا تستحيوا من تكذيبه إن هو أجابَ بالكذب.

سأل هرقل أبا سفيان: كيف نَسَبُ هذا الرجل فيكم؟ أجابه: هو فينا ذو نَسَبٍ.

قال هرقل: هل تكلَّم أحدٌ بهذا القولِ قَبْلَه؟ أجاب أبو سفيان: لا. قال: هل كنتُم تتَّهمونَهُ بالكَذِبِ مِن قبل؟ أجاب: لا. قال: فهل كان من آبائِهِ مِن مَلِكٍ؟ قال: لا. قال: هل أشرافُ الناسِ يَتَّبعونَهُ أَمْ ضُعَفاؤُهُم؟ أجاب: بل ضُعَفاؤُهم. قال: أَيزيدونَ أَم يَنْقُصون؟ أجاب: بَل يَزيدون. قال: فَهَل يرتَدُّ أَحَدٌ منهم سَخْطَةً لدينِه؟ أجابَ: لا. قال: فَهَل يَغْدِرُ؟ أجاب: لا. ونحن الآن في ذِمَّةٍ لا ندري ما هو فاعلٌ فيها (يقصِد معاهدةَ الحديبية). قال: هل قاتلتُمُوه؟ أجابَ: نَعَم. قال: فكيفَ حربُكُم معه؟ أجابَ: الحربُ بيننا وبينه سِجَال؛ مرَّةً لنا ومرَّةً علينا. قال: فَبِمَ يأمُركُم؟ أجابَ: يقول: اعبدوا **الله** وَحْدَه ولا تشركوا به شيئاً، وينهانا عمَّا كان يعبُدُ آباؤنا، ويأمر بالصلاةِ والصدقِ والعفافِ والوفاءِ بالعهدِ وأداءِ الأمانة.

فقال له المَلِكُ حينئذ: إني سألتُكَ عن نَسبِه، فزَعمْتَ أنه فيكُم ذو نَسَب، وكذلكَ الرسُل تُبعَثُ في نَسَبِ قَوْمِها. وسألتُك: هل قال أَحَدٌ قولَه مِن قبل؟ فزَعمْتَ أن لا. فلو قال أَحَدٌ قولَه لقلتُ رجلٌ يأتمُّ

بقولٍ قيل قَبْلَه. وسألتُك: هل كنتم تتَّهمونَه بالكذِب قبل أن يدَّعي الرسالة؟ قلتَ: لا. فقلتُ: ما كان ليَذَرَ الكَذِبَ على الناس ويكذبَ على الله. وسألتُك: هل كان من آبائهِ مِن مَلِكٍ؟ فقلتَ: لا. فلو كان مِن آبائه ملِك، لقلتُ: رجلٌ يطلبُ مُلْكَ أبيه. وسألتكَ: هل أشرافُ الناس يتَّبِعونَه أم ضُعفاؤُهُم؟ فأَجَبْتَ: بل ضُعفاؤُهم؟ وهُم أَتباعُ الرُسُل. وسألتُكَ: أَيَزيدون أم ينقُصون؟ فقلتُ: بل يزيدون. وذلك الإيمان حتى يَتِمَّ. وسألتُك: هل يَرتَدُّ أَحَدٌ منهم عن دينه؟ فقلتَ: لا. وكذلك الإيمان حين تُخالِطُ بَشَاشتُه القلوب. وسألتُك: هل قاتَلْتُموه؟ فقلتَ: نعم، وأنَّ الحربَ بينكم سِجَال. وكذلك الرسل تُبْتَلى ثم تكون لها العاقبة. وسأَلتُكَ: بماذا يَأْمُركُم؟ فزعمتَ أنه يأمرُ بالصَّلاةِ والصَّدَقَةِ والصِّدقِ والعَفافِ والوفاءِ والأداء. وكذلك الأنبياء. وسأَلتُكَ: هل يَغْدُر؟ فَذَكَرْتَ أن لا، وكذلك الرسل لا تَغْدُر. فعَلِمْتُ أنَّه نبيٌّ، وقد علمتُ أنَّه مبعوثٌ ولم أَظُنَّ أنَّه فيكم.. وإن كان ما كلَّمتَني به حقاً فَسَيَمْلِكُ موضِعَ قَدَمَيَّ هاتَيْن، ولو أَعلَمُ أنِّي أَخلُصُ إليه لتكلَّفتُ ذلك. قال أبو سفيان: فَعَلَت أصواتُ الذين عندَه وكثُرَ لَغَطُهم، فأَمَرَ بنا، فأُخْرِجنا.

خرجَ أبو سفيان مندهشاً، فما كان يظنُّ أن يبلغَ محمَّدٌ ﷺ هذه الدرجة، فقال: «لقد بلغَ أَمْرُ ابنِ أبي كَبْشَةَ أن يخافَهُ مَلِكُ بني الأصفر». (وقد سمَّى أبو سفيان محمداً ﷺ بابن أبي كَبْشَةَ استصغاراً لشأن الرسول ﷺ، أمَّا نَعتُ بني الأصفر فكانت العربُ تُسمِّي الرومَ

بني الأصفر).

أغلقَ هرقلُ مَلِكُ الروم الأبـواب، وكلَّمَ حاشيتَه من مكان لا يطالونَه منه، فقال لهم: يا معشرَ الروم، هل لكُم في الفلاحِ والرُّشدِ وأن يثبتَ مُلْكُكُم فَتُبايعوا هذا النبي؟ فَحَاصُوا حَيْصَةَ حُمُرِ الوَحْشِ من الغَضَبِ وهَجَموا على الأَبوابِ فَوَجَدُوهَا قد غُلِّقَت. فلما رأى هرقلُ نَفْرَتَهم قال: إني قلتُ لكُم مقالَتي هذه أَخْتَبِرُ بها شِدَّتَكُم على دينكُم. فهدأوا وَرَضُوا عَنْه. وهكذا غَلَبَ حبُّ مُلكِهِ على الإسلام، ولكنَّه ردَّ دِحيَةَ الكلبي حاملَ كتابِ النبي ﷺ ردّاً جميلاً.

أما الملوك والحكام الآخرون، فمنهم من رَدَّ رُسُلَ النبيِّ ﷺ رَدّاً جميلاً مع بعض الهدايا كالمُقَوْقِس عظيم القِبْطِ في مصر؛ فقد أَهْدَى إلى رسول **الله** ﷺ جاريَتَيْن وبَغْلَةً ثمينة، فأَعطى إحدى الجاريَتَيْن إلى حسان بن ثابت، وأَبقى عندَهُ الثانية واسمُها مارية التي وَلَدَت له ابنَه ابراهيم.

ومنهم مَن مزَّق الكتابَ استِكْباراً، كَكِسْرى مَلِكِ الفُرْسِ، وأرسلَ إلى عامله في اليمن أن يأتيَهُ بالنبي ﷺ راغماً. فدعا عليه النبي ﷺ قائلاً: «اللهم مَزِّق مُلْكَه»؛ فكان أن قَتَلَهُ ابنه شيرَوَيْه وسَقَطَت بلادَه بأَيدي المسلمين قبل كلِّ البلاد، وانتقلت كنوزُها إلى المسلمين.

ومنهم مَن أَسلَمَ كالمُنذرِ مَلِكِ البحرين، فأَبْقاه على مُلْكِه، وكذلك فَعَلَ مع مَلِكَي عُمَان، وما قُتِلَ لرسول **الله** ﷺ غيرُ رسولٍ واحد، قَتَلَه

أَحَدُ اللِّئام في قرية مُؤْتَة قرب حدود الشام، قبل أن يَصِلَ إلى أمير بُصرى. فكان أن أدَّبهم رسولُ الله ﷺ بجيشٍ فيما بعد وعلَّمَهُم أنَّ الرُّسُلَ لا تُقْتَل.

وهكذا، أَخَذَ الإسلامُ طريقَهُ إلى جميع البلاد التي حوله؛ إذ إنَّ رسالةَ محمَّد ﷺ لا تقتصرُ على النِّطاق في بلادِهِ بل تتعدَّى ذلك إلى باقي العالم. قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٢٨ ﴾ [سورة سبأ].

غزوة خيبر

في السنةِ السابعةِ من الهجرةِ أمرَ ﷺ بالتجهيزِ لغزوِ يهودِ خيبر الذين كانوا أعظمَ مهيِّجٍ للأحزابِ ضدَّ المسلمينَ في غزوةِ الخندق، والذين لا يزالونَ عاملينَ على محالفةِ كلَّ من يُناوئ رسولَ الله ﷺ. فخرجَ مع أصحابِه، ومَنَعَ الأعرابَ منَ الخروجِ معه لأنَّهم ما خرجوا في سبيل الله بل للغنائِم.

وخيبر تبعُد حوالَيْ ثمانين ميلاً إلى الشمال من المدينة، وكانت ذاتَ شَطْرَيْن: الأوّل فيه خَمْسَةُ حصون، والثاني ثلاثة. وعسكر المسلمون بعيداً عن النُّبُل، حتى إذا مضى أسبوع، ظفر عمر بن الخطاب ـ وكان حارساً للجيش في ليلة ـ بيهودي خارجاً في جوف الليل، فأتى به رسولَ الله ﷺ، فدَبَّ الرعبُ في قلب الرجل وطلبَ الأمان مقابلَ أن يَدُلَّهُم على ما يَنفَعُهُم، فأَمَّنوه .

فقال: إنَّ أهل هذا الحصنِ قد أدركَهم التعب، وقد تركتُهم يُرسِلون أولادَهم إلى الحصنِ الآخر، وسيخرجون لقتالِكُم غداً؛ فإذا فُتِحَ عليكم هذا الحصنُ غداً، فسأدلُّكُم على بيتٍ فيه منجنيق ودباباتٍ[١] وفيه أيضاً دروعٍ وسيوفٍ يسهل عليكم بها فتحَ بقيةِ الحصون.

وسُرَّ المسلمون بهذه الغنيمة، فقال ﷺ: «لأُعْطِيَنَّ الرايةَ غداً رجلاً يفتح على يديه، يُحبُّ **الله** ورَسولَهُ ويُحبُّهُ **الله** ورسولُهُ»؛ فكانَ الكلُّ يتمنَّى أن يكونَ هو صاحبَ هذه الراية، فلما كان الغد، أرسلَ إلى عليٍّ كرَّم **الله** وجهَه على رغمِ ما بِعَيْنَيْهِ مِن رَمَد، وتَفِلَ له فيهما، فَشَفاهُما **الله**، وسَلَّمَه الراية. ثم حمل المسلمون على الحِصْنِ، فانهزمَ اليهودُ إلى الحصنِ الذي يليه، ومن قلعةٍ إلى قلعة، حتى أنهى المسلمونَ حربَهم مع اليهودِ في مدَّةٍ لا تَتَجاوَزُ الشهر، وغَنِموا من الحُصونِ ما استطاعوا أن يجهِّزوا به جيشاً لحربِ الفرسِ والروم.

وقد صالَحَ النبيُّ ﷺ بعضَ اليهودِ على البقاءِ مُقابِلَ نِصْفَ انتاجِ الأرضَ منَ الزروع.

وفي هذه الغزوة قَدِمَ جعفرُ بن أبي طالب رضي الله عنه وأصحابُهُ من الحبشة، وفيهم أبو هريرة رضي الله عنه، ومعهم الأشعريُّون من اليمن. ولمَّا قَدِمَ جعفر تلقَّاه النبي ﷺ وقبَّله وقال: «و**الله**، ما أَدري بأَيِّهما أَفرحُ بِفَتْحِ خيبر أَم بقُدوم جعفر؟».

---

(١) الدَّبابَة آلةُ حربٍ يتحصَّنُ بها الجنود ليُحدِثوا ثغرةً في الحصن دون أن تُصيبَهُم النِّبال، شبيهةً بالدبابة الميكانيكية إنَّما مِن خشب.

وحدث أن أَهدت امرأةٌ يهوديةٌ شاةً مسمومةً لرسولِ **الله** ﷺ، فأخذَ ﷺ منها لقمةً ثم لَفَظَها، فقد أَعْلَمَه ربُّه أنَّها مسمومَة. غير أنَّ أحدَ الصحابةِ كان قد بَلَعَ منها، فمات لوَقْتِه.

عمرة القضاء

كان من شروط صلح الحديبية، أن يؤدِّيَ رسولُ **الله** ﷺ العُمْرَةَ في العام القادم. ولما مرَّت سنةٌ على صلح الحديبية، خرج عليه الصلاة والسلام بمَن مُنِعُوا من العمرة لقضائها، واستَخْلَفَ على المدينة أبا رُهْمٍ الغفاري، وساقَ معه ستين بَدَنَة، وأخرج معه السلاح حَذَراً من غَدْرِ قريش، وكان معه مائة فارس.

ولمَّا وصل ﷺ إلى ذي الحُلَيْفَة، أَحْرَمَ وقدَّمَ الخيلَ أمامَه. فقيل له: يا رسول **الله**، قد شرطوا علينا ألاَّ نحملَ السلاح ونحن نَحمِلُهُ! فأجابهم ﷺ: «لا ندخل به الحَرَم، ولكن يكونُ قريباً منَّا، فإن هاجَنا هائجٌ فزِعنا له». فالمؤمن فَطِنٌ حَذِر، لا يجعلُ العدوَّ يأخذهُ على غرَّة.

وفي الطريق، انتبه له نَفَرٌ من قريش، فَفَزِعوا وأسرعوا إلى قومهم فأَخبَروهُم، فجاءَه جماعةٌ منهم، وقالوا: و**الله** يا محمد، ما عُرِفْتَ بالغَدْرِ صغيراً ولا كبيراً، وإنَّا لم نُحْدِث حَدَثاً! فقال ﷺ: «إنَّا لا ندخُلُ الحَرَمَ بالسلاح». وهكذا أَمَّنَ على المسلمين مِن غدرِ قريش؛ إذ إنَّ قريشاً لا تستطيع أن تحاربَه في الأرضِ الحرامِ حينما يترُكُ

سلاحَه، فالحَرَمُ آمِنٌ في الجاهليةِ والإسلام.

قال تعالى: ﴿ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٥٧ ﴾ [سورة القصص] .

فقد مكَّن الله عَزَّوَجَلَّ برحمته لأهل مكة الأمن والرزق أيضاً، استجابةً لدعوة أبينا ابراهيم عليه الصلاة والسلام. ولمَّا حانَ وقتُ دخولهم مكة خرجَ أهلُها منها كارهين رؤيةَ المسلمين يطوفون بالكعبة. فدخل رسولُ الله ﷺ مِن ثنية كَدَاء. ثم طافَ بالكعبة وهو على راحلته، واستلم الحجر الأسود بمَحجَنَه[(١)] وأَمَرَ أصحابَهُ أن يُسرعوا ثلاثةَ أشواط إظهاراً للقوّة لأنَّ المشركين كانوا يظنُّون أنَّ حمَّى يَثْرِب قد أَنهكَت قوى المسلمين، وقد قال ﷺ: «رَحِمَ الله امْرأً أَراهُم اليَوْمَ مِن نَفْسِهِ قُوّةً»، واضْطَبَعَ بردائه أي كَشَفَ عَضُدَه الأيمن.

وطافَ المسلمون بالبيت، وسَعَوا بين الصَّفا والمروة، ونَحَروا هديهم. وبقي المسلمون ثلاثة أيام ثم رجع رسول الله ﷺ مسروراً بما حباه الله من تصديق رؤياه قبل صلح الحديبية.

إسلام خالد بن الوليد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ

لم يَكَدْ رسولُ الله ﷺ يرجعُ إلى المدينة حتى وقَفَ خالدُ بن الوليد، فارسُ قريش وبطلُ أُحُد، يقول في جَمْعٍ من قريش: لقد

(١) المِحْجَن: قضيبٌ أو عصا صغيرة معقوفة من أحد طرفيها.

استبانَ لكلِّ ذي عقلٍ أنَّ محمداً ليسَ بساحرٍ ولا شاعر، وأنَّ كلامَه مِن كلامِ ربِّ العالمين، فحقَّ على كُلِّ ذي لُبٍّ أن يتَّبِعَه. وقد فزعَ عكرمةُ بن أبي جهل لما سمِعَ، فردَّ قائلاً: لقد صَبَأْتَ يا خالد. فأجابه: بل أَسْلَمْت. فقال عكرمة: واللّٰه، إن كان أحدٌ في قريش أحقُّ ألاّ يتكلَّمَ بهذا لأنتَ. فسألهُ: ولِمَ؟ قال: لأنَّ محمداً وضع شَرَفَ أبيك. والمعروف أن خالد هو ابن المغيرة الذي أنزل الله تعالى فيه: ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ ۝١١ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ۝١٣ ﴾[سورة القلم]. (فقد وَصَفَ الله ﷻ كل هذه الصَّفات المَرذولَةِ في أبيه).

ويتابع عكرمة ويقول: وجَرَحَ أباك، وقَتَلَ عمَّك وابن عمِّك ببَدْر، فوالله ما كنتُ لأُسْلِمَ ولأَتكلَّمَ بكلامِكَ يا خالد. أما رأيتَ قريشاً يريدون قِتَالَه؟ فأجابه خالد: هذا أَمْرُ الجاهلية وحَمِيَّتُها، لكنِّي والله، أَسلَمْتُ حين تبيَّن لي الحق.

ثم أرسل خالد بن الوليد إلى النبي ﷺ بأفراسٍ أصيلة إقراراً بإسلامه ثم أتى إلى المدينة ليَنضَمَّ إلى صفوف المسلمين. فسُرَّ به رسول الله ﷺ لمَّا رآه وقال له: «الحمدُ للّٰه الذي هَداك، فقد كنتُ أرى لكَ عقلاً رَجَوْتُ ألاَّ يُسْلِمَكَ إلا إلى خير». فقال خالد: يا رسولَ الله، ادْعُ الله أن يغفرَ لي تلك المواطن التي كنتُ أَشهَدُها عليك؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «الإسلامُ يَجُبُّ ما كان قَبْلَهُ» أي يمحو

سيِّئات الماضي. وقد سمَّاه رسولُ **الله** ﷺ فيما بعد «سَيْفُ **الله**»، لما كان له مِن جَوْلاتٍ وصَوْلاتٍ في الحروب لم ينكسر في إحداها قط. وقد أَسلَمَ مع خالد خالُهُ عمرو بن العاص وعثمان بن طلحة، وقد أَسلَمَ بإسلام هؤلاء كثيرٌ من أهل مكة، واتَّبَعوا دين الحق؛ فقوِيَت شَوكةَ الإسلام أَكثَرَ فأكثَر، حتى أصبح فَتْحُ مكة على الأبواب.

غزوة مؤتة

حدثت في السنة الثامنة من الهجرة. وسَبَبُها أنه أَرسلَ النبيُّ ﷺ الحارثَ بن عُمَيْر الأَزْدي إلى مَلِكِ بُصْرى يدعوه إلى الاسلام. فاعترَضَهُ شُرَحْبِيلُ بن عَمْرٍو الغساني ـ وكان عاملاً على أرض الشام من قِبَل قيصر الروم ـ فأَخذَهُ وقتَلَه، وكان قَتْلُ الرُّسُلِ آنذاكَ يعني الحرب. فجهَّزَ النبي ﷺ ثلاثةَ آلاف مقاتل. وأمَّرَ رسولُ **الله** ﷺ زيدَ بن حارثة على قيادة هذا الجيش. وقال: «إن أُصيبَ زيدٌ فجعفر بن أبي طالب، وإن أُصيبَ جعفرُ فعبدُ **الله** بن رَوَاحَة على الناس». وكان في الجيش الفارس الشجاع خالد بن الوليد رضي الله عنه، وكانت هذه أوَّلُ معركةٍ شَهِدَها بعد إسلامه.

وعندما شيَّعهم رسولُ **الله** ﷺ أَوْصاهُم هذه الوصيَّة الإنسانية الكريمة: «اغْزُوا بسْمِ **الله** في سبيل **الله**. فَقَاتِلُوا عَدُوّ **الله** وعَدُوَّكُم بالشَّام، وسَتَجِدونَ رجالًا في الصَّوامِعِ قد فَرَغُوا أَنفُسَهُم لعبادةِ **الله** فلا تَتَعَرَّضوا لهم، ولا تَقْتُلوا امرأةً، ولا صغيراً ولا عجوزاً فانيا، ولا

تَقْطَعوا شَجَرَةً ، ولا تَهْدِموا بَيْتًا».

كان الروم قد جَمَعوا لهم جمعاً عظيماً منهم ومن العربِ. فتشاور المسلمون فيما يفعلون: أَيُرسِلونَ لرسولِ الله ﷺ يطلبونَ منه مَدَداً، أم يُقْدِمون على الحرب؟ فقال عبدُ الله بن رَواحَة: «يا قوم، واللّٰه إنَّ الذي تكرهونَ هو ما خَرَجْتُم له، ونحن ما نقاتِلُ بقوَّةٍ ولا بكَثْرة، ما نُقاتِلَ إلا بهذا الدِّينِ الذي أَكْرَمَنا الله به فإنَّما هي إحدى الحُسنَيَيْن: إما النَّصر وإمَّا الشَّهادَة».

بَدَأَت المعركة، واخترقَ زيدُ بن حارثة صفوفَ العدوِّ الكبيرِ العدد، فقاتلَ حتى استُشْهِد. فأَخَذَ الرايةَ جعفرُ بن أبي طالب وهو ينشد:

يا حَبَّذا الجَنَّةُ واقْتِرابُهَا طَيِّبَةٌ بَارِدَةٌ شَرابُهَا

ولم يَزَل يُقاتل، حتى إذا أَحاطَ العدوُّ به مِن كلِّ جانب. واندفَعَ كالسَّهمِ بين القوم يَهْوي بسيفه، وكان اللواءُ بيَمينِه فقُطِعَت، فأَخَذَهُ بشماله فقُطِعَت، فاحْتَضَنَهُ بعَضُدَيْه حتى استُشهِد. فأخذ الرَّايَةَ من بَعدِهِ عبدُ الله بن رُوَاحَة. وهَجَمَ على الأعداء. ولكن من أين للإنسان أن يتخلَّص من هذه الأُلوف المُؤَلَّفة؟ فقاتل حتى استُشْهِد.

أَعلَمَ اللهُ تعالى رسولَه عليه الصلاة والسلام باستشهادِ هؤلاءِ الثلاثةِ في حينِه؛ فكانَ ﷺ يتكلَّمُ كمن يرى المَوْقِعَةَ على التلفاز، فقال: «أخَذَ الرَّايةَ زَيْدٌ فَأُصيب، ثُمَّ أَخذَ جَعْفَرٌ فَأُصيب، ثُمَّ أَخذَ ابْنُ

رَواحَةَ فَأُصيبَ وعَيناهُ تَذْرِفانِ حتَّى أَخَذَ الرَّايةَ سَيْفٌ مِن سُيوفِ **الله** حتَّى فَتَحَ **الله** عَلَيْهِم». وكان أن أخذ الراية بعد ابن رَوَاحَة ثابتُ بن أرقم، وقال: يا مَعْشَرَ المسلمين، اصْطَلِحوا على رَجُلٍ منكم.

قالوا: أنت.

قال: ما أنا بفاعل. فاختاروا خالد بن الوليد.

كانَ خالدُ بن الوليد مِن أبرعِ القادةِ العسكريين؛ إذ عندما أخذَ الرايةَ قاتلَ يومَه قتالاً شديداً، وفي الغدِ خالَفَ ترتيبَ الجيشِ فجعلَ المقدِّمَةَ مؤخرةً والمؤخرةَ مقدِّمةً، والمَيْمَنَةَ مَيْسَرةً والمَيْسَرةَ مَيْمَنةً. فظنَّ العدوُّ أنَّ المَدَدَ جاءَ للمسلمين فأَصابه الرُّعْب.

ثم أخذَ خالدٌ يرجِعُ بالجيشِ إلى الوراءِ شيئاً فشيئاً وهو يناوش الأعداء. وظنَّ العدو أنَّ خالداً يُريدُ استدراجَهُم نحو الصحراء حيث لا يمكنُهُم التخلُّص. فتوقفوا وانقطع القتال؛ فكان ذلك نصراً للمسلمينَ إذ أنقذَ الجيشَ من الضيا ع. وعاد الجيش من هذه المعركة إلى المدينة بأَقل خسائر ممكنة.

ولما وصلوا إلى المدينة عَيَّرَهُم بعضُ المسلمين قائلين لهم: "يا فُرَّار". فقال ﷺ: «لَيْسُوا بالفُرَّارِ ولَكِنَّهُم الكُرَّارُ إن شَاءَ **الله**»؛ أي الذين يعودون للنِّزال بعد التقهقر.

ثم أثنى رسولُ **الله** ﷺ على خالد وعلى مهارته الحربيَّة البارعة ومكيدته التي أَنقَذَت الجيش.

مقدِّمات فتح مكة

دخلت قبيلة خُزاعَة في عهد رسول **الله** ﷺ، ودخلت قبيلة بني بَكْر في عهد قريش.

كان بين القبيلتين دماءٌ في الجاهلية خَمَدَت نارُها بظهور الإسلام. ولمَّا حَصَلَت الهُدْنَة، أراد بنو بكر أن يصيبوا مِن خُزاعَة ثأراً قديماً. فأَغاروا عليهم ليلاً، وأَعانَتْهُم قريش بالسلاح والرجال، وأَصابُوا منهم رجالاً على ماءٍ يُقال له: الوَتير.

أسرع عمرو بن سالم الخُزاعي إلى المدينة يَستَنْجِدُ برسول **الله** ﷺ على خيانة قريش وبني بكر. فقال له رسول **الله** ﷺ: «نُصِرْتِ يا عمرو بن سالم».

نَدِمَت قريش على ما كان، وأرادت مداواةَ هذا الجرح البليغ. فأَرسلوا قائدَهُم أبا سفيان إلى المدينة ليثبِّتَ العَقْدَ (أي صلح الحديبية) ويَزيدَ في مُدَّتِه.

دخل أبو سفيان المدينة، ونزل على ابنته أُم حبيبة رضي الله عنها زوجة رسول **الله** ﷺ . ولما أرادَ الجلوسَ، رَفَعَت فراشَ رسول **الله** ﷺ عن الأرض وطَوَتْهُ حتى لا يجلسَ عليه أبوها أبو سفيان.

فقال لها: أَبُنَيَّة، أَرَغِبْتِ به عنِّي، أم رَغِبْتِ بي عنه؟ فقالت: ما كانَ لكَ أن تجلسَ على فراشِ رسول **الله** ﷺ وأنت مشركٌ نَجِس. فخرجَ مِن عندِها غاضباً وهو يقول: لقد أَصابَكِ بَعْدي شَرٌّ، واتَّجَهَ نحو مسجد

رسول **الله** ﷺ، وعَرَضَ على النبي ﷺ ما جاءَ لأَجْلِهِ فلم يزِدْ على قولِه شيئاً.

خرج أبو سفيان من عند رسول **الله** ﷺ، فمشى إلى أكابر المهاجرين مِن قريش علَّهُم يساعدونه في مَقْصَدِه أو يَشفَعون له عند رسول **الله** ﷺ. ولكن مَن منهم يحبُّ أبا سفيان الذي قادَ جيشَ المشركين في أُحُدٍ وقَتَلَ أبطال المسلمين؟ فأَجابوه جميعاً بجواب واحد هو: «جِوارُنا في جوارِ رسول **الله** ﷺ» (أي أَنَّنا لا نقولُ غير ما يقول). وعاد أبو سفيان إلى مكةَ ذليلَ النَّفْس، مقهورَ القلب، وأَخبَرَ قريشاً بما حدث.

جهَّزَ الرسول ﷺ جيشاً عرمرماً، وكَتَمَ الخبر عن وجهته حتى لا تَشعُرَ قريش فتَستَعِدَّ للحرب وهو لايريد الحربَ في البلد الحرام، إنما يريدُ فقط أن تنقادَ له قريش مع عدم المساس بحُرْمَة مكة، ودعا ربَّهُ قائلاً: «اللَّهُمَّ عَمِّ عَلَيْهِم خَبَرَنَا حتَّى نَأْخُذَهُم بَغْتَةً».

غير أنَّ رجلاً من الصحابة وهو حاطِبُ بنُ أبي بلتعة رضي الله عنه، وقد كانت له يَدٌ طُولَى في الجهاد، وهو من أصحاب بدر، اجتهد اجتهاداً خاطئاً خوفاً على أهله في مكة. فأَرسلَ كتاباً مع امرأة إلى قريش يخبرها بعزم رسول **الله** ﷺ لعل قريشاً تَحفَظُ له هذه اليد، فلا تتعرَّض لأهله بالأذى إذا ما دخل رسولُ **الله** ﷺ مكة بجيشه الكبير.

لقد كان لهذا الصحابي جولاتٌ كبيرةٌ في الجهاد، كما أنه كانَ رسولاً للنبي ﷺ إلى المُقوْقِسِ أميرِ مصر عندما أرسلَ كُتُبَه إلى الملوكِ يدعوهُم إلى الإسلام، لهذا استغربَ الصحابَةُ فِعْلَه، حتى أنَّ عمرَ بن الخطاب أرادَ أن يَضرِبَ عُنُقَه بتهمةِ النفاق.

أَخبر **الله** عَزَّوَجَلَّ رسولَهُ بالرسالة. فبعث ﷺ في إثْرِ المرأة عليّاً والمِقْداد، وقال لهما: «انْطَلِقوا حتى تَأْتُوا رَوْضَةَ خَاخٍ فَإِنَّ بها ظَعينَةً ومَعَها كتابٌ فَخُذوهُ منها». فانطلقا، ووَجدا المرأةَ هناك، فقالا لها: أَخرجي الكتاب». فأَنكَرَت. فقالا: «لَتُخْرِجِنَّ الكتَابَ أَوْ لَتُلْقِيَنَّ الثِّيابَ» فاضْطُرَّت للرضوخ وأَخْرَجَتْهُ مِن شعرها المَعْقوص عليه. فأَتَيا به رسولَ **الله** ﷺ، فلمَّا عَلِمَ رسول **الله** ﷺ ما في الرسالة، قال: «ما هذا يا حاطب؟» قالها بكل بساطة وهدوء. فقال حاطب: «لا تَعجَلْ عليَّ يا رسولَ **الله**، و**الله** إنِّي لمُؤمنٌ بـ**الله** ورسوله، ما غيَّرتُ ولا بدَّلْتُ ولكني، كنتُ امرءاً مُلصَقاً في قريش، لستُ من أَنفُسِهِم ولي منهم أَهلٌ وعَشيرة ووَلَدٌ، وليس لي فيهم قرابة يَحمُونَهُم، فصانعتُهُم عليهم بهذه الرسالةِ حتى لا يقتُلوهم إن وقعت بيننا الحربُ، ولا يُغني كتابي عنهم من **الله** شيئاً». فقال ﷺ: «لقد صَدَقَكُم». قال عُمَرُ: «يا رَسولَ **الله**، دَعْني أَضْرِبْ عُنُقَ هذا المُنافِق»، قال: «إنَّهُ قد شَهِدَ بَدْرًا وما يُدْريكَ لَعَلَّ **الله** أَن يَكونَ قَد اطَّلَعَ على أَهْلِ بَدْر، فَقال: اعْمَلوا ما شِئْتُم، فَقَد غَفَرْتُ لَكُم». فَدَمَعَتْ عَيْنَا عُمَرَ وقال: «**الله**

ورَسولُهُ أَعْلَم».

بعد أن تَمَّ تجهيزُ جيش المسلمين، سار عليه الصلاة والسلام على رأس هذا الجيش العظيم في العاشر من رمضان.

الزحف إلى مكة

ولما وصلَ الجيشُ الى الكَديد (إسم المكان)، أمرَ رسول الله ﷺ المسلمينَ بالفِطْرِ لأنَّ الصومَ أَتعبَهُم، والله ﷻ أباح الإفطار في حالةِ السَّفَرِ والمرض، وبينما هم في الطريق إذا بعمِّه العباس مهاجراً إلى المدينة فرحَّب به ﷺ وأَعادَهُ معه إلى مكة بينما أَرسَلَ عيالَهُ إلى المدينة.

ولما وصل إلى (مَرِّ الظهران) أمر ﷺ بإيقادِ عشرةِ آلافِ نار إرهاباً لقريش. وكانت قريشٌ قد بلَغَها أنَّ محمداً قد زَحَف بجيشٍ عظيمٍ لا تعلم وجهتَهُ، فأرسلوا أبا سفيان ومعه اثنان يلتمسون الخبرَ. فإذا بنيرانٍ كأنها نيرانُ عَرفة أيامَ الحج، وبينما هم مأخوذون بهذا المنظر، إذ بحرسِ الجيشِ يطبِقونَ عليهم ويأخذونَهم أسرى إلى النبي ﷺ، ولكن العبَّاس أنجدَ أبا سفيان بأن أَركَبَه على بغلةِ النبي البيضاء وردَّ صاحبيْهِ إلى مكة. فلما مرَّت البغلةُ بنارِ عمر بن الخطاب عرفَ أبا سفيان، وأدركَ أنَّ العبّاسَ يريدُ إجارتَه، فأسرعَ إلى خيمةِ النبي ﷺ وطلبَ إليه أن يضربَ عنقَه. فقال العباس: «قد أَجَرتُهُ يا رسولَ الله». وبعد مناقشة ـ لا تخلو من حدَّة بين عمر

والعباس ـ، قال رسول **الله** ﷺ: «إذهب به إلى رَحْلِكَ يا عباس، فإذا أصبحتَ فأتني به».

فلما كان الصباحُ، جيءَ بأبي سفيان، وكبارُ الصحابةِ يحيطونَ بالرسول ﷺ إجلالاً وإكباراً. فلمَّا رآهُ النبي ﷺ قال له: ويحكَ يا أبا سُفيان، أَلَم يأْنِ لكَ أن تعلمَ أنهُ لا إلٰه إلا **الله**؟ فأجابَ: بأبي أنتَ وأمي! ما أحلَمَكَ وأكرَمَكَ وأَوْصَلَكَ! و**الله** لقد ظننتُ أن لو كانَ مع **الله** إلٰهٌ غيرُه لكان أغنى شيئاً. فقال ﷺ: ويحكَ يا أبا سفيان، أَلَم يأْنِ لكَ أن تعلمَ أنِّي رسولُ **الله**؟ فأجاب: بأبي أنت وأُمي! ما أَحلَمَك وأَكرَمَكَ وأوصَلَكَ! أما و**الله** هذه، فإنَّ في النَّفسِ منها حتى الآن شيئاً.

هنا تدخَّلَ العباسُ وطلبَ إلى أبي سفيان أن يُسلمَ قبل أن يفوتَه القطارُ. فلم يَجِد بُداً منَ الإسلام، فأَسلَمَ وأَحسنَ إليه النبي ﷺ. ولما طلبَ إليه العبَّاسُ أن يجعلَ له شيئاً من الفخرِ عندما يدخُلُ الجيشُ مكَّة لأنَّ أبا سفيان يحبُّ الفخر، فقال عليه الصلاة والسلام: «مَن دَخَلَ دار أبي سفيان فهو آمِن».

ثم قال لعمِّه العباس: أَوْقِفْ أبا سفيان عند خَطْمِ الجبل (مضيق الوادي) حتى ينظُر إلى المسلمين، فجعَلَت القبائلُ تمرُّ كتيبةً كتيبة على أبي سفيان، حتى إذا مرَّت به كتيبةُ الأنصار، قال سعدُ بن عبادَة ـ حامل رايتها ـ لأبي سفيان: «اليومَ يومُ المَلْحَمَة، اليومَ تُستَحَلُّ الكعبة». ثم جاءت كتيبةٌ، وهي أقوى الكتائبِ فيها

رسولُ الله ﷺ وأصحابه وحاملُ الرايةِ الزبيرُ بنُ العوّام. فأخبرَ أبو سفيان النبيَّ ﷺ بمقالَةِ سعد، فقال: «كَذَبَ سَعْدٌ ، ولكِن هذا يَوْمٌ يُعَظِّمُ اللهُ فيه الكَعْبَة، ويَوْمٌ تُكْسَى فيه الكَعْبَة»؛ وهذا يعني أنَّ رسول الله ﷺ لم يَقبَل أن يستعمِلَ أصحابُه العنفَ لحُرمةِ بيتِ الله الحرام.

وأمر الرسولُ الله ﷺ خالد بن الوليد أن يدخل من أسفل مكة.

ودخلَ الرسولُ ﷺ من أَعلاها، ونادى مُناديه: «مَن دَخَلَ دارَهُ فَهُوَ آمِنٌ، ومَن أَلْقَى سلاحَهُ فَهُوَ آمِنٌ، ومَنْ دَخَلَ دارَ أبي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ، ومَن أَغْلَقَ بَابَهُ فَهُوَ آمِن». وبذلك أَشبَعَ نَفْسَ أبي سفيان بهذا الفخر.

أثناء دخول خالد بن الوليد مكة، قابلَهُ بعضُهم يريدون صدَّهُ عن الدخول وبدأُوه الحربَ، فقُتِلَ منهم اثنا عشر، وفَرَّ الباقون. ثم هدأت الحالة كما قال الله عزوجل: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ [سورة الفتح].

تأثَّر رسولُ الله ﷺ عند دخوله مكة بهذا الموقفِ المهيب، فطأطأَ رأسَه خشوعاً لله ﷻ وتواضعاً لحَرَمِه وشكراً له على هذه النِّعمَةِ العظيمة، كان ذلك صباحَ يومِ الجمعة العاشر من رمضان، وكان يرافقُه وزيرهُ الأوَّل أبو بكر رضي الله عنه يحادثُه وهو يقرأ سورة «الفتح»، حتى بلَغَ البيتَ، وطاف به سبعاً على راحلتِه، فجعلَ يطعَنُ الأصنام

بقضيبٍ في يده وهو يقول ﷺ: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾ [سورة الإسراء]. وكُبَّتِ الأصنامُ على وجوهِها، وطُهِّرَ البيتُ الحرامُ منها، وقُطِعَ دابرُ القوم الذين ظلموا، وقَضى الله على الوثنيَّةِ والحمدُ لله ربِّ العالمين.

وأمر النبي ﷺ بلالاً أن يُؤَذِّنَ فوق الكعبة، وصلَّى الناسُ بإمامة النبيِّ ﷺ. ومن يومِها، والناسُ يُصلُّونَ هناكَ خَمْسَ مراتٍ في كلِّ يوم وليلة.

وجاءت قريشٌ إلى رسول الله ﷺ بعد فتح مكة، وكانت قد آذَتْهُ وأَخرَجَتْهُ مِن بلده، فقال رسولُ الله ﷺ: «ما تَرَوْنَ أنِّي صَانعٌ بكُم؟»، قَالُوا: «خَيْرًا، أَخٌ كريمٌ وابنُ أخٍ كريم». قال ﷺ: «اذْهَبوا فأَنتُمُ الطُّلَقَاء». عفا رسولُ الله ﷺ عن أكثرِ الذين أَمَرَ بقَتْلِهم، فأَسْلَموا وحَسُنَ إسلامُهُم، وكفَّروا عن سيِّئات الماضي بما جاهدوا فيما بعد في سبيل الله.

وحدث أن قتلَت (خزاعَةُ) رجلاً مشركاً من (هُذَيْل) فغضبَ النبيُّ ﷺ وقام في الناس خطيباً، فقال: «يا أيُّها الناس، إنَّ الله عَزَّوَجَلَّ حرَّمَ مكَّةَ يومَ خلَقَ السَّماواتِ والأَرضِ، فهي حَرَامٌ مِن حَرامِ الله تعالى إلى يومِ القيامة، لا يَحِلُّ لامرئٍ يُؤمِنُ باللهِ واليومِ الآخرِ أن يَسفِكَ فيها دَماً ولا يَعْضِدَ بها شجراً. لم تَحلِلْ لأَحدٍ كان قبلي ولا تُحِلُّ لأَحدٍ يكونُ بعدي، ولم تَحلِلْ لي إلا هذه الساعة غَضَباً على أهلِها،

أَلَا ثُمَّ قد رجَعَت كحُرمَتِها بالأمس، ألا فليبلِّغِ الشاهدُ منكم الغائب، فَمَن قال لكم: إنَّ رسولَ الله ﷺ قد قاتَلَ بها، فقولوا: إنَّ الله عَزَّوَجَلَّ قد أَحلَّها لرسولِهِ ولم يُحْلِلْها لكم يا مَعْشَرَ خُزاعَة، وارفعوا أَيديكُم عن القتل فقد كَثُرَ أن يقَعَ، لَئِنْ قَتَلْتُم قتيلاً لأَدِيَنَّهُ(١)، فمن قُتِلَ بعد مقامي هذا فأهلُهُ بخيرِ النَّظِرَيْنِ: إن شاؤوا فَدَمُ قاتلِهِ، وإن شاؤوا فَعَقْلُهُ(٢)».

وبهذا الخطاب الذي يعظم فيه ﷺ الحُرَمَ، ويضعُ فيه أُسُسَ العدلِ دخلَ الناسُ في دينِ الله أفواجاً.

ثمَّ أقامَ النبي ﷺ بمكة تسعةَ عشرَ يوماً، ينظِّم خلالها شؤونَ مكَّة ويفقِّه أهلَها في الدينِ ويَقْصُر في الصلاة. ثمَّ بعث بعضَ السَّرايا، لتحطيم الأصنام خارج مكة. وكلُّ رجلٍ قُتل خطأً دفعَ ديَّتَه، ولو كان مشركاً؛ حتى رَضِيَ الناسُ جميعاً فحطَّموا أصنامَهم بأيديهِم.. وهكذا ساسَ رسولُ الله ﷺ هؤلاء الجُفاة أَحْسنَ سياسةٍ، ولا عَجَبَ، فهو صاحبُ الخُلُقِ العظيم.

عندما دخلَ جيشُ المسلمينَ مكَّة، ارتقى والدُ أبي بكر جبلَ أبي قُبَيْسٍ خوفاً، فتبعَه ابنُه أبو بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وجاء به إلى النبي ﷺ. فلما رآه ﷺ قال لأبي بكر: "هَلاَّ تركتَ الشيخَ مكانَه حتى أكونَ أنا آتيهِ فيه؟" قال أبو بكر: «يا رسولَ الله، هو أَحقُّ أن يمشي إليكَ من أن تَمشِيَ أنت إليه». فمسحَ النبي ﷺ على صدرِه ثم قال له الرسول ﷺ: «أَسْلِم».

(١) لأدينَّه: لأدفعنَّ دِيَتَه.

(٢) عقلُهُ: دِيَتَه.

فأَسلَمَ، وحسُنَ إسلامُه.

عندما أَقبَلَ الناس يبايعونَهُ على الإسلام، كان بينهم رجلٌ يرتعدُ خوفاً من هَيْبَته، فقال له عليه الصلاة والسلام: «هَوِّنْ عَلَيْك، فإنِّي لَسْتُ بِمَلِكٍ، إنَّما أَنا ابنُ امْرَأَةٍ مِن قُريش كانَتْ تَأْكُلُ القَديد»، فسَكَنَ قلبُ الرجل.

أمَّا هند امرأة أبي سفيان آكلَةَ كَبدِ حمزة فقد اخْتَفَت، ثم ضاقت عليها الأرضُ، فجاءَت وأَسلَمَت، فرحَّبَ بها رسولُ **الله** ﷺ فقالت: «والله يا رسولَ **الله**، ما كان على ظهر الأرض أهلُ خباءٍ أحبَّ إليَّ أن يَذِلّوا من أهلِ خبائِك، ثم ما أصبحَ اليومَ أهلُ خباءٍ أحبَّ إليَّ أن يَعِزُّوا من أهلِ خبائِك»، فأَسلَمَت وحسُنَ إسلامُها.

أما عكرمةُ بنُ أبي جهل الذي حاربَ الإسلام حتى آخر لحظةٍ، فقد هربَ إلى البحر، فأدركتهُ زوجتُه ـ وكانت قد أَسلَمَت ـ وقالت له: «جِئتُك مِن عندِ أبرِّ الناسِ وخَيرِهم، لا تُهلِكْ نفسَكَ فإني قد أخذتُ لكَ منه أماناً فارجِع إليه». فلمَّا رجَع استقبَلَه رسولُ **الله** ﷺ بسرورٍ وقال: مرحباً بمن جاءَنا مؤمنًا مهاجرًا. ثم أسلَم، وطلبَ من النبي ﷺ أن يستغفِر له كلَّ عداوةٍ عاداهُ إياها. فاستغفرَ ﷺ له، فكان رضي الله عنه يُعَدُّ بعد ذلك من خيرةِ المسلمينَ وأَغْيَرِهم على الإسلام.

أما صفوانُ بُن أُميَّة العدوُّ الأكبرُ لرسولِ **الله**، فاختفى وذهبَ إلى اليمن ليسافر. فجاءَ ابنُ عمِّه عُمَيْر بن وَهَب رضي الله عنه إلى النبي ﷺ يطلب

له الأمان، فأَعطاهُ الأمان وأَعطاه عمامتَهُ، فلحقَه وهو في البحرِ وقال له: جئتُكَ من عندِ أفضلِ الناسِ وأبرِّ الناس وخيرِ الناس، وهو ابنُ عمِّك، وعزُّهُ عزُّك، وشرفُهُ شرفُكَ، وملكُهُ ملكَكَ. قال: إني أخافُهُ على نفسي. قال: هو أَحْلَمُ من ذلكَ وأَكْرَم. ثم أَراهُ العمامةَ -علامةَ الأمانِ- فرجَعَ، ثم أسلَمَ وحسُنَ إسلامه.

وأمّا وَحْشِي، قاتلُ حمزة، فقد قَبِلَ الرسول ﷺ منه إسلامَه، إنَّما قال له: «غَيِّب عني وجهَكَ فلا أَراك»؛ وذلك لشدَّةِ تأثُّره على عمِّه سيِّد الشهداء. غير أنَّ وحشيّاً أرادَ أن يكفِّرَ عن خطيئتِهِ هذه فيما بعد، فقتَلَ مُسَيْلَمَةَ الكذَّاب في حروبِ الرِّدَّة فكانت واحدةً بواحدة.

وأَتَتِ النساءُ إلى رسولِ **الله** ﷺ يُبايعْنَهُ على ألا يُشرِكنَ باللهِ شيئاً، ولا يَسرِقنَ، ولا يَزْنِينَ، ولا يَقْتُلْنَ أولادهُنَّ، ولا يأتينَ ببُهتانٍ يفترينَهُ بين أيديهنَّ وأَرجُلِهِنَّ، ولا يَعْصينَهُ في معروف. وهذه البيعة تُعرف ببيعة النساء.

وأخيراً، أرسلَ رسولُ **الله** ﷺ خالدَ بن الوليد رضي الله عنه في ثلاثين فارساً لهَدْمِ هيكل العُزَّى وهي أكبرُ صَنَمٍ لقريش ببطن نخلة، وأرسل عمرو بن العاص رضي الله عنه لهدم سُوَاع (أعظم صَنَم لهُذَيْل)، وبعثَ سَعْدَ بن زيد الأَشْهَلي رضي الله عنه في عشرين فارساً لهدم مناة (لخُزاعَة).

وهكذا سقطَت دولةُ الأوثانِ، وتوطَّدَت محلَّها دولَةُ التَّوحيدِ والإسلام. والحمدُ **لله** ربِّ العالمين.

غزوة حنين

بعد فتح مكة، دانت العرب للإسلام، ودخلوا فيه أفواجاً.

أما قبيلتا هوازن وثقيف فأدركَتهُما حميَّة الجاهليَّة، فاجتمعَ أشرافُهما وتشاوروا فيما بينَهم. فقالوا: قد فَرَغ محمَّدٌ مِن قتالِ قومِهِ ولا بُدَّ له من حربِنا، فلنَغْزُه قبل أن يغزونا. وهكذا أجمعوا أمرَهم على القتال، وكلَّفوا لقيادتِهم مالكَ بن عوف. فاجتمعَ له من القبائلِ جموعٌ كثيرةٌ؛ منهم بنو سعد بنِ بكر الذين استُرضِعَ فيهم رسول الله ﷺ، وكان في القومِ دُريدُ بن الصِّمَّة المشهور بأصالةِ الرأي وشِدَّة البأسِ في الحرب، لكنه كان قد أدرَكَه الكِبَر.

أمرَ مالِكُ بن عوفٍ الناسَ أن يأخذوا معهُم نساءَهم وذَراريهِم وأموالَهم، فسألَه دُريدُ عن السبب، فأجابَه مالك: حتى لا يتقهقروا. فقال دريد: راعي ضأن والله، وهل يَرُدُّ المُنْهَزِمَ شيء؟ إنَّها إن كانت لَك لَم يَنْفَعْك إلّا رَجُلٌ بسَيفِهِ ورُمْحِه، وإن كانَت عَلَيْك فُضِحْتَ في أَهْلِك ومَالِك.

لم يقبل مالكُ مَشورةَ دُرَيْد، فصفَّ النساءَ صفوفاً وراء المقاتِلين، ووراءَهم الإبلُ، ثم البقرُ، ثم الغنمُ، كيلا يفرَّ أحدٌ من المقاتلين.. ولكن ما أَغنى عنه جَمْعُهُ ومالُهُ.

علِم رسولُ الله ﷺ بما عقدت عليه هوازنُ وثقيفُ من مبادأتِه بالحربَ، فسار إليهم ومعه اثنا عشرَ ألفَ مقاتل؛ منهم ألفانِ من أهلِ

مكَّة، والباقونَ هم الذين أتوا معه من المدينة. ولمَّا قرُبَ الجيشُ من معسكرِ العدوِّ صفَّ ﷺ الغزاةَ وعقدَ الألوية، فأعطى لواءَ المهاجرينَ لأسدِ الله الغالبِ علي بن أبي طالب، ولواءَ الخزرج للحبابِ بن المنذر، ولواءَ الأوسِ لأُسَيْد بن حضير، والألويةِ الأُخرى لرؤساءِ القبائلِ الأُخرى. ثم ركبَ بغلتَه ولبسَ دِرعَيْهِ والبيضةَ والمغفر (لباس الحرب). هذا وقد أُعجِبَ المسلمونَ بكثرتِهم فأدَّبَهم ربُّهم بسرعةٍ قبل أن يدخلوا المعركة.

إنَّ هذه الصفوفَ الطويلةَ المتراصَّةَ تُغري بالإعجابِ! فقال رجلٌ منهم: لن نُغْلَبَ اليومَ من قِلَّة. وغابَ عن بالِهِ أنهم ما غَلبوا عدوَّهُم يوماً من الأيامِ بكثرتِهم بل بنصرِ الله وتأييدهِ وحُسنِ صلتِهِم به. وبما أنَّ الغرورَ ليس من صفاتِ المؤمنينَ أرادَ الله عَزَّوَجَلَّ أن يُعطيَهم درساً بليغاً يعودون فيه إلى خُضوعِهم لله وتواضُعِهم له. فما أن أتمَّ الرجلُ كلامَه حتى خرجَ لهم كمينٌ كان مستَتِراً في شعابِ الوادي وأَمطرَهُم بنُبُلٍ كأنها الجرادُ المنتشِر.

ودبَّت الفوضى في جيشِ المسلمينَ بعد هذه المفاجأة، فارتدُّوا على أَعقابِهِم لا يلوون على شيء. والرسولُ ﷺ في آخرِهِم يدعوهُم أن يكفُّوا عن التَقهقُر، ويناديهِم بصوتِ عمه العباس الجَهْوَري.. وثَبَتَ رسول الله ﷺ في ميدانِ القتال، وثبتَ معه قليلٌ من المهاجرينَ والأنصار، ومنهم أبو بكرٍ وعمر وعلي والعباس

وغيرُهُم رضي الله عنهم.

كلُّ هذا ورسولُ الله ﷺ واقفٌ مكانَه يقول: «أَنا النَّبِيُّ لا كَذِبْ، أَنا ابنُ عَبْدِ المُطَّلِب». ثم طلبَ مِن عمِّه العباس أن ينادي مناداةً خاصَّةً حرَّكت نفوسَ أصحابِه إلى الاستجابةِ لرسولِ الله ﷺ بلا تردُّد، فنادى بصوتِهِ القوي: «يا معشرَ الأنصار، يا أصحابَ بَيْعةِ الرضوان». فَسمعَهُ كلُّ من في الوادي، وتذكَّروا بيعتَهُم له على الموت، فطفقوا يصيحونَ: لبَّيكَ، لبَّيك. حتى اجتمعَ حولَ رسولِ الله ﷺ جَمْعٌ عظيم أنزلَ الله عليهم السكينة، فكرُّوا على عدوِّهم يداً واحدة، فتشتَّتَ شَملُ المشركين، وتفرقوا في كلِّ وجهٍ لا يلوونَ على شيء. فقُتِلَ من قُتِل، وأُسِرَ من أُسِر، وهربَ من هرب.

وهكذا تلقَّى المسلمون درساً بليغاً بعدم الغرور. ومن يومها لم يعد إليهم هذا المرض القتَّال.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾ [سورة التوبة].

وبلغَتْ غنائمُ معركةِ حُنَيْن أربعاً وعشرين ألف بعير، وأربعين

ألف شاة، وأربعةِ آلاف أوقية فضَّة، ومن السَّبْي ستَّةَ آلاف. أما جنود العدو فقد تفرَّقوا في كلِّ وادٍ، وتجمَّع بعضُهُم في الطائف.

غزوة الطائف

سارَ عليه الصلاة والسلام بمَن معه إلى الطائف، وجعلَ على مقدِّمةِ الجيشِ خالدَ بن الوليد ﵁، فلمَّا وصلوا الطائفَ وجدوا الأعداءَ قد تحصَّنوا بحصنِ الطائف، وأدخَلوا معهم قوتَ سنَتِهم، فعَسْكَرَ المسلمونَ قُربَ الحُصْن، فرماهُم المشركون بالنبالِ رمياً شديداً حتى أُصيبَ منهم كثيرون بجراحات، وتُوفِّيَ إثر ذلك اثنا عشر رجلاً، فارتفع النبي ﷺ بمن معه عن مواقعِ النبال، واستمرَّ حصارُه لهم، وكان خالدُ يُنادي فيها بالبراز، فلا يخرجُ إليه أحد.

ونَصَبَ رسولُ الله ﷺ المنجنيق، ودخلَ جَمْعٌ من الصحابة تحتَ دبابتين ليَنقُبوا الحصنَ. فأَرسَلَت عليهم ثقيفٌ سكك الحديدِ المحمَّاة بالنار حتى أَرجعوهم.

فأمر ﷺ أن تُقطَعَ أعنابُهم ونخيلُهم، فناداه أهلُ الحصنِ أن دَعْها للهِ وللرَّحِم. فقال: «فَإنّي أَدَعُها للهِ وللرَّحِم».

ثم أمرَ رسولُ الله ﷺ منادياً ينادي بأنَّ كلَّ مَن ترك الحصنَ ونزلَ فهو آمنٌ، فخَرَجَ إليه بضعة عشرَ رجلاً. ولمَّا رأى أنَّ تمَنُّع ثقيفٌ شديدٌ، وأنَّ الفتحَ لم يُؤْذَن فيه، استشارَ نوفل بن معاوية الدِّيلي في الذهابِ أو المُقام، فقال: يا رَسولَ الله، ثَعْلَبٌ في جُحْر، إن أَقَمْت عليه

أَخَذْته، وإن تَرَكْتَه لَمْ يَضُرّك. فأمر ﷺ بالرحيل.

وطلبَ منه بعضُ الصَّحابةِ أن يدعوَ على ثقيفٍ لشدَّةِ غيظِهم منهم، فقال ﷺ: «أللهمَّ اهْدِ ثقيفاً وائْتِ بِهِم مسلمين».

وتمهَّل رسولُ الله ﷺ في توزيع الغنائم رجاءَ أَن تأتيَ هَوَازن تائبين فيحرزوا أموالهم،

ثم بدأ بقسمة الأموال وخَمَّسه(١)، وأعطى منه شيئاً كثيراً لأُناسٍ حديثي عهدٍ بالإسلام يتألَّف قلوبهم.

واشتد الزحام على رسول الله ﷺ عند قسمه الغنائم، حتى أَلجأُوه إلى شجرةٍ من شدةِ الزحام، فعلِقَ رداؤُهُ فيها، فقال: «يا أيُّها النّاس، رُدُّوا عليَّ ردائي، فوالذي نفسي بيده، لو كان لكم عدد شجر تِهامة نَعَماً لقَسَمْتُه عليكم، ثم ما أَلفَيْتُموني بخيلاً ولا جباناً ولا كذاباً»، ثم قامَ رسولُ الله ﷺ إلى بعيره وأخذَ من سَنَامه وَبَرَة، وقال: «أيها الناس، والله ما لي مِن فَيْئكُم ولا هذه الوَبَرَة إلا الخُمُسُ، والخُمسُ مَردودٌ عليكم فأدّوا الخِياطَ والمَخيط، فإنَّ الغُلولَ(٢) عارٌ

(١) يقول الله ﷻ للمسلمين معلماً: ﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [سورة الأنفال، ١٤]. ومعنى هذا أنَّ خُمسَ هذه الغنائم لرسولِ الله ﷺ؛ يوزِّعها هو بمعرفتِه حيث يشاء على الأقربينَ والأيتام أو أي صنف آخر من أصنافِ المعوزينَ ليس لأحد حقُّ الاعتراضِ عليه.

(٢) الخِياطَ والمخيط: يريد كل شيء مهما كان صغيرًا. الغلول: الاختلاس من الغنيمة.

ونارٌ وشَنَارٌ على أهله يوم القيامة». فكانَ من أثرِ ذلك أنَّ كلَّ من أخذ شيئاً من الغنائم خلسةً ردَّه ولو كان زهيداً.

وقد أصابَ الراجلُ من المقاتلين أربعةً من الإبلِ وأربعينَ شاةً، وأصاب الفارسُ ثلاثةَ أمثالِ ذلك يعني اثني عشر جملاً ومائة وعشرين شاة، لأن الفارسَ له ثلاثةُ أمثالِ الراجل.

وكان من الذين أَعطاهُم أبو سفيان وابناهُ معاويةُ ويزيد؛ أعطاهُ أربعينَ أُوقيَّة من الذهب، ومائةً من الإبل حتى قال له: بأبي أنت وأمي لأنتَ كريمٌ في السلمِ والحرب. ومنهم حكيمُ بن حزام أعطاهُ كأبي سفيان، فاستزادَه فأَعطاهُ، فاستزادَهُ فأَعطاهُ مثلها، وقال: «يا حكيم، إنَّ هذا المالَ خَضِرَةٌ حلوةٌ، فمن أَخَذَه بسَخاوَةِ نَفْسٍ بُورِكَ له فيه، ومَن أَخذَهُ بإشْرافِ نَفْسٍ لم يُبارَك له فيه، وكان كالذي يأكُلُ ولا يَشْبَعُ، اليَدُ العُلْيا خَيْرٌ منَ اليَدِ السُفْلى».

فأخذَ حكيمُ المائةَ الأولى وتركَ ما عداها لمَّا سمعَ ذلك، ثم قال: «والذي بعثكَ بالحق لا أَرزأُ[١] أحداً بَعدَكَ شيئاً حتى أُفارقَ الدنيا». فكانَ الخلفاءُ ـ بعد رسول الله ﷺ ـ يعرِضون عليه العطاءَ الذي يستحقُّه من بيتِ المال فلا يأخذه.

وأعطى رسول الله ﷺ عُيَيْنَة بن حصن مائةً من الإبل، وكذلك الأَقْرَعَ بن حابِس والعباس بن مِرْداس رضي الله عنهم.

أغدَقَ رسولُ الله ﷺ العطايا على قريشٍ وتركَ الأنصارَ الذين

(١) أَرْزأ: أسأل.

هم أحبُّ الناسِ إليه. وقد تأثّر بعضُهم من هذا العمل وقالوا فيما بينهم: «إن هذا لَهُوَ العجبُ! يُعطي قريشاً ويتركُنا وسيوفُنا تقطرُ مِن دمائِهم؟». فأرسلوا له سعد بن عُبادة، فكلّمَه في ذلك، فأمرَ بجَمْعِهم على انفراد، وقال ﷺ لهم: «يا معشرَ الأَنصار، ما قالَةٌ بلغَتْني عنكم، وَجِدَةٌ وَجَدْتُموها في أنفُسِكُم؟ أَلَم تكونوا ضُلاّلاً فهداكُم الله؟ وعالَةً فأَغْناكُم الله؟ وأعداءً فألَّفَ بين قلوبِكُم؟» قالوا: «بَلِ الله ورسوله أَمَنُّ وأَفْضَلُ». قال: «أَلا تُجيبوني يا معشرَ الأَنصار؟» قالوا: «وبماذا نُجيبُكَ يا رسولَ الله، ولله ولرسولِهِ المَنُّ والفَضْلُ؟» قال: «أَما والله، لو شِئْتُم لقُلتُم فلصَدَقْتُم ولَصُدِّقْتُم، أَتيْتَنا مُكَذَّباً فصدَّقناك، ومَخْذولاً فَنَصَرناك، وطَريداً فآوَيْناك، وعائلاً فأَغنَيْناك». (لقد استَلَّ رسولُ الله ﷺ بهذا الكلام الضَّغينةَ من النفوس، فأنْصَفَ نفسَه وأَنصفَهم منه؛ وهذه سياسةُ القائدِ الحكيمِ الذي يجمعُ القلوبَ على محبَّتِه).

ثم قال ﷺ لهم: «أَوَجَدْتُم في أَنْفُسِكُم يا مَعشَرَ الأَنصَارِ في لُعاعَةٍ[١] من الدُّنيَا تَألَّفْتُ بِهَا قَوْمًا لِيُسْلِمُوا ووَكَلْتُكُم إلى إسلامِكُم؟ أَفَلَا تَرْضَوْنَ يا مَعْشَرَ الْأَنْصارِ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بالشَّاةِ والبَعيرِ وتَرجِعُونَ بِرَسُولِ الله ﷺ في رِحَالِكُم؟ فَوالَّذي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْلا الهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَأً مِن الأَنصارِ، ولَوْ سَلَكَ النَّاسُ شِعْبًا وسَلَكَت الأَنصارُ شِعْبًا لَسَلَكْتُ شِعْبَ الأَنصار. اللَّهُمَّ ارْحَم الأَنْصَارَ وأَبْنَاءَ الأَنْصارِ وأَبْنَاءَ أَبْنَاءِ الأَنْصَار».

---

(١) الشيء القليل.

فبكى الأنصار حتى اخضَلَّت لِحاهُم، وقالوا: «رَضينَا برسولِ الله قِسْماً وحَظاً».

قدوم وفد هوازن

بعد أن خَسِرَت هَوازنُ مالَها ونساءَها وأبناءَها وأقواتِها، فأَصبحَت إلى الموتِ أقربَ منها إلى الحياة، لم تَرَ إلا الرُّضوخ والخُضوعَ لله ولرسولِه، فأرسَلَت وفداً يرأَسُه زُهيرُ بن صُرَدٍ، فقال مستعطفاً: يا رسولَ الله، إنَّ فيمن أَصَبْتُم الأمهاتِ والعمَّاتِ والخالاتِ وهُنَّ مخازي الأقوام، ونَرغَبُ إلى الله وإليكَ يا رسولَ الله. ثم أردف قائلاً: إنَّ في الحظائرِ عمَّاتِكَ وخالاتِكَ وحواضِنِكَ اللاتي كُنَّ يَكْفُلْنَكَ. ثم أنشد يستعطِفُهُ:

أمنُن علينا رسولَ الله في كَرَمٍ ... فإنَّكَ المَرْءُ نرجوهُ وننتظرُ

إلى أن قال:

فألبِسِ العفوَ مَن قد كنتَ ترضعُه ... مِن أُمهاتِك، إنَّ العفوَ مُشْتَهَرُ

لقد كان رسولُ الله ﷺ ينتظرُهُم أن يُقدِموا عليه قبل أن يقسم الغنائم. ولكنهم تأخَّروا عليه فقال لهم: «أَحَبُّ الحَديثِ إلَيَّ أَصْدَقُه، فاخْتَاروا إحدى الطَّائِفَتَيْن: إمَّا السَّبْيَ وإمَّا المَال. وقد كنتُ أنتظركُم حتى ظننتُ أنكم لا تقدمون»، فقالوا: ما كنَّا نَعدِلُ بالأحساب شيئاً أردُدْ علينا نساءنا وأبناءنا، فهو أَحبُّ إلينا ولا نتكلَّم في شاة ولا بعير.

فقال ﷺ: «أما ما لي ولبَني عبدِ المُطَّلب فهو لكُم، فإذا صلَّيتُ الظهرَ فقوموا وقولوا: نحن نَستَشْفِعُ برسولِ **الله** إلى المسلمينَ وبالمسلمينَ إلى رسولِ **الله**، بعد أن تُظهِروا إسلامَكم وتقولوا نحن إخوانُكُم في الدين»، ففعلوا. (لقد علَّمهم رسولُ **الله** ﷺ كيف يدخلون إلى قلوب المسلمين ليَرُدُّوا لهم أهاليهم فيقول لهم: وبالمسلمين إلى رسول **الله**؛ يعني أنَّ رسول **الله** ﷺ يقبلُ شفاعةَ المسلمين فيهم، وهذا تعظيمٌ لشأن المسلمين من جهة وترضيةٌ لقلوبهم الطيِّبة الرحيمة من جهةٍ أخرى).

ففعلوا ما أمرهم رسول **الله** ﷺ به. فقام ﷺ في أصحابه وقال: «أمَّا بَعْد، فَإنَّ إخوانكُم هؤلاء جاؤونا تائبين، وإنِّي رأيتُ أن أَرُدَّ إليهم سَبْيَهُم، فَمَنْ أَحَبَّ منكم أَن يُطَيِّبَ ذلكَ فَلْيَفْعَلْ، ومَن أَحَبَّ أن يكون على حَظِّهِ حتى نُعطِيَهُ إيَّاهُ من أَوَّلِ ما يَفيءُ **اللهُ** علينا فَلْيَفْعَل».

فقال المهاجرون والأنصار: ما كان لنا فهو لرسولِ **الله**.

أما حديثو العهدِ بالإسلام فقد اسْتَقْرَضَهُم رسول **الله** ﷺ غنائمهم ليُعيدَها إلى هَوازِن على أن يوفِّيَهم دَيْنَهُم فيما بعد.

أمَّا مالكُ بنُ عَوْفٍ الذي كان قائداً للمشركين في حُنَيْن، فقد حَبَسَ رسولُ **الله** ﷺ عائلتَه بمكة عند بعض أقربائهم يُريدُ بهم خيراً. وعلمَ رسولُ **الله** ﷺ أنَّ مالكَ بن عوف هرب مع ثقيف. قال ﷺ: «أخْبِروهُ إن جاءَني مُسلمًا رَدَدْتُ عليه أَهْلَهُ ومالَهُ وأعطَيْتُه

مائَةً مِن الإبل». فلما بلغَ ذلك مالكاً، نزلَ منَ الحِصْنِ خُفْيَةً حتى أتى رسولَ **الله** ﷺ بالجِعْرانة، فأَسلَمَ وأَحرزَ أهلَه ومالَه، ثم استعملَه ﷺ على مَن أَسلَمَ مِن هوازن. وهكذا ختَمَ **الله** له بالخيرِ.

لمَّا انتهى رسولُ **الله** ﷺ من أعمالِ الحربِ والإحسانِ فيها، أَحْرَمَ بعُمْرَةٍ من الجعرانة، ودخلَ مكةَ بالليلِ، ثم رجع من ليلتِه إلى الجعرانَة، ثم أمر بالرحيلِ فسار الجيشُ آمناً مطمئِنّاً حتى دخلَ المدينة بسلام.

وفود وحوادث

ثم جاءَهُ وَفْدُ تَميم، فجلسوا ينتظرونَه، فلمَّا أَبطأَ عليهم، جعلوا ينادونَه من وراءِ الحُجُراتِ بصوتٍ جاف: «يا محمَّد، اخرج إلينا نُفاخِرُكَ، فإنَّ مَدْحنا زَيْنٌ وإنَّ ذَمَّنا شَيْن»، فخرجَ ﷺ وقد تأذَّى من صِياحِهم ولهجَتِهم البدويَّةِ الجافَّة، وفيهم نزل قوله تعالى في سورة الحجرات:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝٤ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥﴾.

وكان الوقتُ ظهراً فأذَّن بلال، ودخل النبي ﷺ للصلاة، فتعلَّقوا به يقولون: «نحن ناسٌ من تميم، جئنا بشاعرنا وخطيبنا نُشاعِركَ ونُفاخِرُك». فقال ﷺ لهم: «ما بالشِّعرِ بُعِثْنا، ولا بالفِخار أُمِرنا»، ثم أسلَمَ القومُ، وأَحسَنَ جائزتَهم، وأقاموا مدَّةً يتعلَّمونَ فيها القرآن

ويتفقّهون في الدِّين.

ثم بعثَ ﷺ الوليدَ بنَ عقبة لأخذ صدقاتِ بني المصطَلَق، فخرجوا إليه متقلِّدين سلاحَهم احتفاءً بقدومِه ومعهم إبل الصدقة. فظنَّ الرجلُ أنَّ القومَ خرجوا لحربِه لما كان بينه وبينهم من عداوةٍ في الجاهلية، فرجع مسرعاً وأخبرَ النبي ﷺ أنَّ القومَ منَعوا الزكاةَ وخرجوا لحَربِه. فأَرسلَ إليهم خالدَ بن الوليد لاستكشافِ الخَبَر، فلمَّا وَصَلَهم آخرَ الليل سمعَ المؤذِّنَ يؤذنُ الصُّبْحَ، ولم يَجِدْ منهم إلا الطاعةَ.

وفي ابن عقبة نزل قوله تعالى معلِّماً المؤمنين أن يتثبَّتوا من الأخبار ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ٦﴾ [سورة الحجرات].

تبوك آخر الغزوات

بلغَ رسولَ الله ﷺ أنَّ الرومَ جَمَعَت الجموعَ تريدُ غزوَ بلاده، وكان ذلك في زَمَنِ عُسْرٍ، ظَهَرَ فيه كَرَمُ الصَّحابةِ وعظيمُ إنفاقِهِم في سبيل الله.

وعلى غير عادتِه في الغزوات السابقة، فقد أَعلَمَ رسولُ الله ﷺ أصحابَه إلى أين هم ذاهبون، لطولِ السَّفَر، وشدَّة العدوِّ، حتى يأخذ الناسُ عدَّتهم الكاملة.

وبعثَ رسولُ الله ﷺ إلى مكة وقبائلِ العرب يَستَنْفِرُهُم، وحَثَّ

المُوسرين على تجهيز المُعْسِرين. وتبارى الصحابةِ بالبَذْلِ والنفقةِ في سبيلِ **الله**؛ فأَنفقَ عثمانُ بن عفَّان ﵁ ثلاث مائة بعيرٍ وخمسين فرساً سوى النقود. فامتلأ وَجْهُ رسولِ **الله** ﷺ بِشْراً وسرورا لهذه العطيَّة الكبيرة، وقال: «اللَّهُمَّ ارْضَ عَنْ عُثْمَان، فإنِّي عَنْهُ رَاضٍ».

وقدَّم أبو بكر ﵁ كلَّ ما يَملِك. فسأله النبي ﷺ: «ما أبْقَيْتَ لأهْلِك؟»فأجاب: «أَبْقَيْتُ لَهُم **الله** ورَسولَه». وجادَ عمرُ بنُ الخطاب ﵁ بنصفِ ماله. فَدَعا له رسولُ **الله** ﷺ بالبركةِ، وقال له ولأبي بكر: «بينكُما كما بينَ كَلِمَاتِكُما»[(١)].

ثم توالى الصحابة يقدِّمون نفقاتهم كلٌّ على حسب قدرته وإيمانه. فجاء عبدُ الرحمٰن بن عوف ﵁ بمائةِ أُوقية من الذهب، وجاء العباس وطلحة بمالٍ كثير، وتصدَّق عاصم بن عدي بسبعينَ وَسْقاً[(٢)] من تمر، وقدَّمت النِّساء حُليّهنَّ: فكانت المرأةُ تَنتَزِعُ أساوِرَها من يديها، وأقراطَها من أُذنيها، وقلادتَها من صدرِها وتُلقيها في المسجدِ بين يَدَي رسولِ **الله** ﷺ، ورسولُ **الله** ﷺ يدعو لهنَّ بأَحسَنِ الدعوات.

أخذ كل مسلم يحضِّر نفسه للمشاركة في هذه الغزوة. غير أنه بالرغم مِن كثرة المُتبرِّعين، فإنَّ بعض المسلمين لم يتمَّ تجهيزُهم؛ ومن هؤلاء النَّفَر سبعةٌ مِن فقراءِ الصحابةِ، طلبوا إلى رسولِ **الله** ﷺ

---

(١) يعني أنَّ فَضْلَ أبي بكر يساوي ضعفَيْ فَضْلَ عمر ﵄.

(٢) الوَسْقُ: مكيالٌ مقداره ستُّون صاعاً، والصاعُ أربعة أمداد، والمُدُّ مقدار ما يملأ الكفَّيْن.

أن يجهِّزَهُم بما يحملُهم في السفر. فقال ﷺ لهم: «لا أَجِدُ ما أَحمِلُكم عليه». فانصرفوا وهم يبكون لأنَّهم لن يستطيعوا الجهادَ مع رسولِ الله. فكان من أثر ذلك أن جهَّزَ عثمانُ ثلاثةً منهم، والعبَّاس اثنين، ويامين بن عمر اثنين رضي الله عنهم. وفيهم نزل قولُ الله تعالى في سورة التوبة:

﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾.

كان عدد جيش المسلمين ثلاثين ألفاً. وقد ولَّى الرسول ﷺ على المدينة محمد بن مسلَمَة، كما ولَّى على أهلِ بيتهِ صهرَه علياً الذي سأل قائلاً: «أَتُخَلِّفُني في الصِّبيانِ والنِّساء؟»، فقال ﷺ له معظِّماً شأْنَه: «ألا تَرْضَى أن تكونَ مِنِّي بمَنْزِلَةِ هارُونَ مِن موسَى إلاَّ أَنَّهُ لَيْسَ نَبِيٌّ بَعْدي».

وقد اعتذر عن الخروج في هذه الغزوة بعضُ ضُعفاءِ الإيمان وبعض المنافقين، وقد أشار إليهم القرآن الكريم في سورة التوبة بقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾، وقوله تعالى:

﴿وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّۗ قُلۡ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّٗاۚ لَّوۡ كَانُواْ يَفۡقَهُونَ ٨١﴾.

وقد بيَّنَ الله ﷻ أنَّ المؤمنين لا يتخلَّفون عن رسول الله ﷺ لأنَّه بالتعب والظَّمأ يُكتَبُ لهم عملٌ صالح، قال تعالى:

﴿مَا كَانَ لِأَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ وَمَنۡ حَوۡلَهُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرۡغَبُواْ بِأَنفُسِهِمۡ عَن نَّفۡسِهِۦۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ لَا يُصِيبُهُمۡ ظَمَأٞ وَلَا نَصَبٞ وَلَا مَخۡمَصَةٞ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوۡطِئٗا يَغِيظُ ٱلۡكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنۡ عَدُوّٖ نَّيۡلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٞ صَٰلِحٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٢٠ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةٗ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةٗ وَلَا يَقۡطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمۡ لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٢١﴾ [سورة التوبة] .

أمَّا الذين لم يخرجوا للقتال مع رسول الله ﷺ، فقد بيَّنَ القرآن الكريم نواياهم بأنَّهم لا خَيْرَ فيهم ،لأنَّهم سيُدخِلون الشَّكَّ إلى نفوس المقاتلين ويثبِّطون عزائمهم. قال تعالى: ﴿لَوۡ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمۡ إِلَّا خَبَالٗا وَلَأَوۡضَعُواْ خِلَٰلَكُمۡ يَبۡغُونَكُمُ ٱلۡفِتۡنَةَ وَفِيكُمۡ سَمَّٰعُونَ لَهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ٤٧﴾ [سورة التوبة] .

وسار رسول الله ﷺ بهذه الجحافل الجرَّارة. ولما وصل الجيش إلى ديار ثمود، قال لهم عليه الصلاة والسلام: «لا تَدْخُلوا بُيوت الَّذين ظَلَموا إلَّا وأَنْتُم باكونَ خَوْفًا أَن يُصيبكُم مِثْلُ ما أصابَهُم»؛ يريدُ ﷺ بذلك أن يُشعِرَ قلوبَهم رَهْبَةَ الله بما أَنزلَ مِن عذابٍ على قومٍ كذَّبوا نبيَّهم في تلك الديار.

ولما وصلوا تبوك، كانت أرضاً لا عمارةَ فيها، قال النبي ﷺ لمعاذ بن جبل (عالِمُ الصحابة): «يوشِكُ يا معاذ، إن طالَت بكَ حياةٌ، أن تَرى ما هٰهُنا قد مُلِئَ جِناناً». وقد عاشَ مُعاذ ورأى البساتين، وهذه من معجزاته ﷺ.وكان قد تخلَّف عن رسول **الله** ﷺ رجلٌ اسمُه أبو خَيْثَمَة. إذ بعد أن سار الجيش في جوٍّ حارٍّ جدًّا، دخل أبو خيثمة على أهله، فوجدَ امرأتينِ له في عريشَيْنِ لهما في بستانٍ قد رَشَّت كلٌّ منهما عريشها وبرَّدت فيها الماء وهيَّأَت الطعام. فلمَّا نظرَ ذلك قال: يكون رسولُ **الله** ﷺ في الحرِّ، وأبو خيثمة في ظلٍ باردٍ وماءٍ مهيَّأ وامرأة حسناء! ما هذا بالنِّصَف» (أي بالإنصاف). ثم قال: «والله، لا أدْخُلُ عَريشَ واحِدَةٍ مِنكُما حتّى أَلْحَقَ بِرَسُولِ **الله** ﷺ»، فزوَّدتاهُ بالطعامِ والشراب. ثم ركبَ بَعيرَه وتقلَّد سيفَه ورمحَه وخرجَ يريدُ رسولَ **الله**. ومن بعيدٍ جداً رأى رسولُ **الله** ﷺ رجلاً على بعيره، قد حجبَه الغُبارُ، قال: «كُنْ أبا خَيْثَمَة»، فكان أبا خيثمة، كما قال، وهذه أيضاً من معجزاتِه ﷺ.

لما وصل جيشُ المسلمين تبوك، كان جيشُ الروم قد انسحبَ منها بعد علمه بقوَّة المسلمينَ واستماتَتِهم في سبيلِ **الله**، ولم يرَ رسولُ **الله** ﷺ في مطاردتِهم شيئاً من الخير متمثِّلاً بقول **الله** سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٦١﴾ [سورة الأنفال].

أقامَ رسول **الله** ﷺ أياماً في تبوك، استقبل خلالها بعض الوفود

وكتب لهم كتاباً يؤمِّنُهم فيه على قوافِلِهم البريَّة والبحريَّة، ثم قفل رسول الله ﷺ وجيشه عائداً إلى المدينةِ وقد ازدادت هيبَةُ الإسلام والمسلمين.

ولمَّا عاد ﷺ إلى المدينة، جاءَهُ جماعاتٌ يعتذرون بأَعذارٍ واهية عن عدم خروجهم معه. فقبِلَ منهم ﷺ علانيَتَهُم ووَكَلَ ضمائرَهُم وسرائرَهُم إلى الله واستغفر لهم. وقد سمَّى الله ﷻ هؤلاء بالمنافقين في سورة التوبة.

غير أنَّه كان هناك ثلاثةُ رجالٍ مِن خيار الصحابة، أقرُّوا بذنوبهم وهم: كَعْبُ بن مالكٍ الخَزْرَجي، ومُرارَةُ بنُ ربيعة، وهلالُ بن أُميَّة الأَوْسيَّان (من قبيلة الأَوْس).

أمَّا كعب، فقد دخل على رسول الله ﷺ في المسجد. فلمَّا رآه ﷺ تَبسَّمَ تَبسُّمَ المُغْضَب، ثُمَّ قال: «ما خَلَّفَك؟». فقال كعب ـ وكان شاباً ـ: «إنِّي واللهِ ـ يا رسولَ الله ـ لَوْ جَلَسْتُ عند غيْرِكَ مِن أَهْلِ الدُّنيا، لرَأَيْتُ أَن سَأَخْرُجُ مِن سَخَطِهِ بِعُذْر، ولَقَدْ أُعْطيتُ جَدَلاً، ولكنِّي والله لَقَد عَلِمْتُ لَئِن حَدَّثْتُكَ اليَوْمَ حديث كَذِبٍ تَرضَى به عَنِّي لَيُوشِكَنَّ الله أَن يُسْخِطَكَ عَلَيَّ، ولَئِن حَدَّثْتُكَ حَديثَ صِدْقٍ تَجِدُ[١] عَلَيَّ فيه، إنِّي لأَرْجو فيه عَفْوَ الله، لا والله ما كانَ لي مِن عُذْر». فَقالَ رَسولُ الله ﷺ: «أَمَّا هذا فقَد صَدَق، فَقُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللهُ فيك».

وأَقرَّ مُرارَةُ بن الربيع وهلالُ بن أُميَّة بذَنْبِهِما أيضاً، إنَّما اسْتَحْيَيا

(١) تَجِدُ: تَغْضَب.

أن يَخْرُجا من بَيْتَيْهِما. لأنَّ النبيَّ ﷺ نَهى الناسَ عن مكالمةِ الثلاثةِ كما أَمَرَهُم أن يَعْتَزِلوا نساءَهُم. إلا أنَّ امرأةَ هلال بن أُمية استأذَنَت رسولَ الله ﷺ في خدمةِ زوجِها لأنَّه شيخٌ مُسِنٌّ، فأَذِنَ لها. أما كَعبُ فكان يخرجُ إلى المسجدِ ويسلِّمُ على النَّبي، فلا يُعْلَمُ أَرَدَّ عليه السلامَ أم لا لخُفوتِ تمْتَمَتِه. كما كان يكلِّمُ هذا وذاكَ ولو لم يردُّوا عليه، لينفِّسَ عن نفسِه.

وقد دامَت المقاطعةُ خمسين يوماً أَحَسَّ فيها الثلاثةُ بالضِّيق الشَّديد؛ فقد ضاقَتِ عليهم الأرضُ بما رَحُبَت وضاقَت عليهم أَنفُسَهُم حتى عجَّلَ الله لهم بالفَرَج.

فقد أنزلَ الله ﷻ توبتَهم، فأَرسلَ إليهِم الرسول يبشرُهُم بهذه البشارةِ العظيمة، فتلقَّاهُم الناسُ أفواجاً أفواجاً يهنِّئونَهم بتوبةِ الله عليهم لعظيمِ محبَّتِهم لهم.

أما كَعْبُ فقد تلقَّاهُ رسولُ الله ﷺ مسروراً، وقال له: «أَبْشِرْ بِخَيْرِ يَوْمٍ مَرَّ عليكَ مُنْذُ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ»، قال: «أَمِنْ عِنْدِكَ يا رسولَ الله أَم مِن عِنْدِ الله؟»، قال: «لا، بَل مِن عِنْدِ الله». ففرِحَ كعبٌ فرحاً عظيماً حتى كاد قلبُه يقفزُ من بين جَنبَيْه، وقال: «يا رَسُولَ الله، إنَّ مِن تَوْبَتي أَن أَنْخَلِعَ مِن مَالي صَدَقَةً إلى الله وإلى رسولِه ﷺ». فقال رَسُولُ الله ﷺ: «أَمْسِكْ بَعْضَ مَالِكَ فَهُوَ خَيْرٌ لَك».

قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ

﴿بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١١٨﴾ [سورة التوبة].

حجُّ أبي بكر رضي الله عنه

في أواخرِ ذي القعدة من السنةِ التاسعةِ للهجرة أرسلَ ﷺ أبا بكرٍ ليحجَّ بالناس، وبعد قليلٍ أنزلَ **الله** ﷻ أوائلَ سورة «براءة» فأرسلَ ﷺ بها عليّاً ليبْلِغها الناس يوم الحجِّ الأكبر قائلاً: لا يُبلِّغُ عني إلا رجلٌ مني. فلحِق أبا بكرٍ فسألهُ الصدّيقُ هل استعمَلَكَ رسولُ **الله** على الحج؟ قال: لا ولكن بعثني أقرأ «براءَة»على الناس.

فلما اجتمع الحجَّاج بمنى يوم النحر، قرأ عليهم ثلاثَ عشرة آية من أوَّلِ السورة؛ تتضمَّنُ نَبْذَ العُهودِ لجميعِ المشركينَ الذين لم يُوَفُّوا عهودَهُم، وإمهالُهُم أربعَةَ أشهرٍ يسيحونَ في الأرضِ كيف شاؤوا، كما تتضمَّنُ إتمامَ عهدِ المشركين الذين لم يُظاهِروا على المسلمين ولم يَغدُروا بهم، إلى مدَّتهم. وكان هذا بمثابةِ إنذارٍ أخير لتحطيمِ الأصنام لا يقبلُ النقض.

لهذا نرى عليّاً رضي الله عنه ينادي: «لا يَحُجُّ بَعْدَ العامِ مُشْرِكٌ، ولا يَطوفُ بالبَيْتِ عُرْيَان». وهكذا انتفت الوثنيَّةُ من جزيرةِ العرب، فلم يَبْقَ فيها إلا دينُ التوحيد.

حجّة الوداع

حجَّ رسولُ **الله** ﷺ حَجَّةً وَدَّعَ فيها المسلمينَ، وكان معه جَمْعٌ

عظيمٌ يبلغ أَكثَرَ من تسعينَ ألفاً، وأخذ معهُ جميعَ نسائِه، فلمَّا بلغَ ذا الحُلَيفَة(١)، نزلوا وأَقاموا ليلَتَهم بها.

وفي الصباح لبس المسلمون ثيابَ الإحرام، وبدأوا بالتَّلبِيَة بقولهم: «لَبَّيْكَ اللهُمَّ لَبَّيك، لَبَّيْكَ لا شَريكَ لَكَ لَبَّيك، إنَّ الحَمْدَ والنِّعْمَةَ لَكَ والمُلْك، لا شَريكَ لَكَ».

وسارَ رسولُ الله ﷺ بِمَن معهُ حتى دخلَ مكَّةَ ضُحى، فلمَّا رأى البيتَ قال: «اللهمَّ زِدْهُ تشريفاً وتعظيماً ومهابةً وبِراً». ثم طاف بالكعبةِ سبعاً، واستلمَ الحجرَ الأسودَ، وصلّى ركعتَيْنِ عند مَقام إبراهيم، ثم شربَ مِن ماءِ زَمْزَم، ثم سعى بين الصَّفا والمَرْوَة سبعاً راكباً على راحلتِه.. وكان ﷺ يدعو إذا صعد إلى الصفا:

«لا إلـه إلا الله، الله أكبر، لا إلـه إلا الله وَحدَه، أَنْجزَ وَعْدَه، ونَصرَ عبدَه، وهَزَمَ الأَحْزابَ وَحْدَه».

وفي الثامن من ذي الحجة، توجَّه ﷺ إلى مِنَى فَباتَ فيها، وفي التاسع توجَّه إلى عَرفَة، فلمّا صلَّى الظهرَ وجَمَعَ معه العَصْرَ خَطَبَ خطبتَهُ الشريفةَ التي بيَّن فيها الدِّينَ كُلَّه أُسُسَهُ وفُروعَه.

قال ﷺ في خطبته:

«الحمدُ لله نحمدُه ونستعينُه ونستغفرُه ونتوبُ إليه، ونعوذُ به من شرورِ أنفُسِنا وسيئاتِ أعمالِنا. من يهدِ اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومن يُضلِل فلا هاديَ له، وأشهدُ أن لا إلـه إلا الله وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ

---

(١) مكان بين المدينة المنوَّرة ومكة المكرمة.

أن محمداً عبدُه ورسولُه.

أوصيكُم عبادَ الله وأحثُّكُم على طاعتِه وأستفتِحُ بالذي هو خير.

أما بعد أيها الناس: اسمعوا مني أبيّن لكم، فإني لا أدري لعلّي لا ألقاكُم بعد عامي هذا في موقفي هذا.

أيها الناس: إن دماءَكُم وأموالَكُم عليكم حرامٌ إلى أن تلقَوا ربَّكُم، كحُرمة يومِكُم هذا، في شهرِكُم هذا، في بلدِكُم هذا. ألا هل بلَّغت؟ أللهمَّ فاشهد.

فمن كانت عندَه أمانةٌ فليؤدِّها إلى من ائْتَمَنَه عليها. إنَّ ربا الجاهليةِ موضوعٌ، وإنَّ أوَّلَ ربا أبدأُ به ربا عمِّي العباس بن عبد المطلب. وإنَّ دماءَ الجاهليةِ موضوعةٌ وأوَّلُ دمٍ أبدأُ به دمُ عامر بن ربيعة بن الحارث. وإن مآثرَ الجاهليةِ موضوعةٌ غير السدانَةِ والسقايَةِ. والعَمْدُ قَوْدٌ، وشبهُ العَمْدِ ما قُتِلَ بالعصا والحجر وفيه مائةُ بعير، فمن زادَ فهو من أهلِ الجاهلية.

أَيُّها الناس: إنَّ الشيطانَ قد يَئِسَ أن يُعبَدَ في أرضِكُم هذه، ولكن رضيَ أن يُطاعَ فيما سِوى ذلك مما تَحقِرون من أعمالِكُم.

أيها الناس: إنَّما النَّسيءُ زيادةٌ في الكُفرِ يُضَلُّ به الذين كفروا، يُحلُّونَه عاماً ويحرِّمونَه عاماً ليواطئوا عدَّةَ ما حرّمَ الله. وإنَّ الزمانَ قد استدارَ كهَيْئَتِهِ يومَ خلقَ اللهُ السماواتِ والأرض، وإنَّ عدَّة الشهور

عندَ الله اثنا عشرَ شهراً في كتابِ الله يومَ خلقَ اللهُ السمواتِ والأرض، منها أربعةٌ حُرُم؛ ثلاثٌ متواليات: ذو القِعدة وذو الحِجَّة والمحرَّم، وواحدٌ فَرْدٌ رَجَبُ الذي بين جُمادى وشعبان. ألا هل بلَّغت؟ أللهمَّ اشهد.

أيُّها الناس: إنَّ لنسائكُم عليكُم حقاً ولكم عليهنَّ حقاً، ألاّ يوطِئنَ فرشَكُم من تكرهون، ولا يُدخِلنَ بيوتَكُم أحداً تكرهونَه إلا بإذنِكُم، وعليهنَّ ألاَّ يأتينَ بفاحشةٍ، فإن فَعَلْنَ فإنَّ الله قد أذنَ لكُم أن تعضِلوهُن وتهجروهُنَّ في المضاجِع، وتضربوهُنَّ ضرباً غير مبرِّح، فإن انْتَهَيْنَ وأَطَعْنَكُم فعليكُم رزقُهنَّ وكِسوتُهنَّ بالمعروف. وإنما النساءُ عندَكُم عوانٌ[1] لا يملِكنَ لأنفُسِهِنَّ شيئاً، أخذتُموهنّ بأمانةِ الله واستحللتُم فروجَهُنَّ بكلمةٍ من الله، فاتقوا الله في النساءِ واستوصوا بهنَّ خيراً، ألا هل بلَّغْت؟ أللهمَّ اشهد.

أيُّها الناس: إنَّما المؤمنونَ إخوة، ولا يحلُّ لامرئ مالُ أخيهِ إلا عن طِيبِ نَفْسٍ منه، ألا هل بلَّغت؟ أللهم اشهد. فلا ترجِعوا بعدي كفاراً يضربُ بعضُكُم رقابَ بعض، فإني قد تركتُ فيكُم ما إن أخذتُم به لن تضلُّوا بَعدَه، كتابَ الله وسُنَّتي، ألا هل بلَّغت؟ أللهم اشهد.

أيُّها الناس: إنَّ ربَّكُم واحد، وإنَّ أباكُم واحد، كُلُّكُم لآدَمَ وآدَمُ من تُراب، أكرمُكُم عند الله أَتقَاكم، ليس لعربيٍّ على عجميٍّ فَضْلٌ إلا بالتقوى، ألا هل بلَّغت؟ أللهم اشهد. ألا فليبلِّغ الشاهدُ منكُم الغائب.

---

(١) كالأسيرات.

أيُّها الناس: إنَّ الله قد قَسَمَ لكلِّ وارثٍ نصيبَه من الميراث ولا تجوزُ لوارثٍ وصيَّة ولا تجوزُ وصيةٌ في أكثرِ من الثُّلُث، والولدُ للفراشِ وللعاهِر الحجر. منِ ادَّعى إلى غيرِ أبيه أو تولَّى غير مواليه فعليهِ لعنةُ اللهِ والملائكةِ والناسِ أجمعين، لا يُقبَلُ منه صَرْفٌ ولا عدل، والسلام عليكم ورحمةُ الله وبركاته».

وقد ورد في الخطبة بعض المعاني يلزم شرحها:

«العَمْدُ قَوَدٌ» أي أنَّ من قَتَلَ عامداً متعمِّداً يُقادُ إلى القَتْلِ ويُقتَل، أمَّا إذا تشاجرَ اثنان، فضَرَبَ أحدُهُما الآخرَ بالعصا أو بحَجَرٍ فمات، ففيهِ الدِّيَةُ مائةُ جمل.

و«النَّسيءُ»، هو أنَّ الجاهليينَ كانوا إذا أرادوا الحربَ في الشَّهرِ الحَرامِ -الذي لا يجوزُ فيه الحربُ- قالوا: نؤخِّر هذا الشهرَ فنسمِّيهِ جُمادى بدلاً من رَجَب مثلاً، وهكذا (اختلطت) الشُّهورُ بعضُها ببعضٍ، لكنها عادت إلى انضباطِها في حَجَّةِ الوداعِ لهذا نراه ﷺ يقول: «إنَّ الزمانَ قد اسْتَدارَ كهَيْئَتهِ يومَ خلَقَ الله السماواتِ والأرض»، فالنَّسيء إذاً هو تأخيرُ الشهرِ عن زَمَنِه الذي هو فيه.

أمَّا قولُه ﷺ: «لا وصيَّة لوارث»، لأنَّ الله ﷻ قد أعطى كلَّ ذي حَقٍ حقَّه بآياتِ الميراثِ فلا يجوزُ لمُؤمنٍ أن يُوصي لأَحَدِ الوَرَثَةِ بشيءٍ من مالِه زيادةً عن غيره، وأما ما لا يجوز في أكثر من الثلث، فهو الوصيَّة لغير الورثة بقَصْدِ حرمان ورثته. فمِن النَّاس مَن

يوصي بعد وفاته بمالِه كلِّه، ويترك عيالَه أو أقرباءَه بلا مال؛ فقال ﷺ : «لا يجوزُ أن يوصي بأكثر من الثُّلُث».

وفي حجة الوداع نزل قوله تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۝٣ ﴾ [سورة المائدة]، وقد نزلت في عَرَفَة يوم جُمُعَة. ولمَّا سمع أبو بكر الصديق رضي الله عنه هذه الآية بكى عندما سمع النبي ﷺ يتلو هذه الآية المُفرِحَة. ولمَّا استغربَ الصحابةُ بكاءَه قال: «لقد تمَّت رسالةُ النبي ﷺ ودنا أَجَلُه»، فكان يبكي حزناً على فراقه. وفعلاً لم يَعِشِ النبي ﷺ بعدها أكثر من ثمانين يوماً.

ولمَّا أدَّى رسولُ الله والمسلمونَ المناسكَ ـ بعد عَرَفَة ـ مِن رَمْي الجِمارِ والنَّحرِ والحَلْقِ والطَّواف، وبعد أن أقامَ بمكةَ عشرةَ أيام، قفل راجعاً إلى المدينة، فلما رآها كبَّر ثلاثاً وقال ﷺ : «أَفْضَلُ مَا قُلْتُ أَنَا والنَّبِيُّونَ مِن قَبْلي: لا إلٰه إلا الله، وَحْدَه لا شَريكَ له، له المُلْكُ وله الحَمْدُ، وهو على كلِّ شيءٍ قدير»، وقال ﷺ : «آيبونَ تائبونَ عابدونَ لربِّنا حامدون، صَدَقَ الله وَعْدَه، ونَصرَ عَبْدَه، وهَزَمَ الأحزابَ وَحْدَه».

جيش أسامة بن زيد رضي الله عنه

حصلت بعضُ الاعتداءات على الحدود الشمالية، فأراد النبي ﷺ أن يؤدِّبَ المعتدينَ ويُلقي في قلوبِهم الرعب، فجهَّزَ جيشاً فيه من كبارِ الصحابةِ أمثالُ أبي بكرٍ وعمرَ وأبي عبيدة بن الجراح وسعد

رضي **الله** عنهم، وعقدَ لواء الجيش لأُسامة بن زيد ﵁ الذي قُتِلَ أبوه زيد بن حارثة في معركة مُؤْتَة.

كان أُسامة حديثَ السِّنِّ، لم يتجاوز السابعةَ عشر من عمره، فانتقدَ بعضُ الناسِ هذه الإمارة، فبلغَ ذلك رسولَ **الله** ﷺ فغَضِب، وقال:

«أمّا بَعْد، يا أيّها النّاسُ، فَمَا مَقَالَةٌ بَلَغَتْني عَن بَعضِكُم في تَأميري أُسَامَةَ بنَ زَيد؟ **والله**، لَئِن طَعَنْتُم في إمارَتي أُسَامَةَ لَقَد طَعَنْتُم في إمارَتي أَبَاهُ مِن قَبْلِه، وَايْمُ **الله**، إن كانَ للإمارَةِ لَخَليقًا، وإنَّ ابنَهُ مِن بَعْدِهِ لَخَليقٌ للإمارَة. وإنّ هذا لَمِن أَحَبِّ النّاسِ إلَيّ.. وإنّهما لَمُخيلانِ لِكُلّ خَيْرٍ[1]، فَاسْتَوْصوا به خَيْرًا فإنّهُ مِن خِيارِكُم».

وتوفي رسولُ **الله** ﷺ قبل أن يسيرَ الجيشُ ـكما سنرى فيما بعدـ فذهبَ عمر مُوفَداً من المسلمينَ إلى أبي بكر، وكلَّمَه في إمارةِ أُسامة. فغضِب أبو بكر ﵁ وقال: ثَكِلَتْكَ أمُّك يا ابنَ الخطّاب، أتأمُرني أن أعزِلَ قائداً وَلاّهُ رسولُ **الله**؟ ما كان لابن أبي قُحافَة أن يَحُلَّ لواءً عقَدَهُ رسولُ **الله**.

وخرج أبو بكر مودِّعاً جيش أُسامة ماشياً وبيدِه زمامُ فرسِ أُسامة، فيَرجوهُ أُسامة قائلاً: «يا خليفَةَ رسولِ **الله**، **والله** لتَركَبَنَّ أو لأَنزِلَنَّ! فقال: **والله** لا تَنْزل، ووَ**الله** لا أَركَب! وما عَلَيَّ أن أُغبِّرَ قَدَميَّ في سبيل **الله** ساعةً».

---

(١) لمَظَنَّة لكلِّ خير.

لقد قامَ الجيشُ بمهمَّتِه، فأَرهَب العدو، كما فعلَ رسولُ **الله** ﷺ في تبوك، ورجعَ الجيشُ بإمرةِ أُسامة موفورَ الكرامةِ محققاً غايَتَه.

مرض الرسول ﷺ

لما أتمَّ عليه الصلاة والسلام ما كُلِّفَ به، وأدَّى ما اؤْتُمِنَ عليه من رسالة ربِّه، مَرِضَ ﷺ في أواخر صَفَر من السنة الحادية عشرة للهجرة.

استمرَّ مَرَضُ رسول **الله** ﷺ ثلاثة عشر يوماً، كان خلالها ينتقل بين بيوتِ أزواجِه. ولمَّا اشتدَّ عليه المرض، استأذَنَ منهنَّ أن يُمرَّض في بيتِ عائشةَ ابنةِ الصدِّيق رضي **الله** عنهما، فأَذِنَّ له. ولمَّا اشتدَّ عليه المَرَض أكثر فأكثر؛ طلب من أزواجه أن يصبُّوا عليه الماء لتخفيف حرارة الحمّى، وقد تعذَّر عليه الخروج في أوَّل الأمر لاشتداد الحمّى، فكان يأمر أبا بكر رضي الله عنه أن يصلِّي بالناس مكانه.

وأخيراً، تحامَلَ على نفسِه فعَصَبَ رأسَه من شدَّةِ الوَجَع، وخَرَجَ متَّكِئاً على عليٍّ والفضل رضي الله عنهما، يتقدَّمُهُما عمُّه العباس رضي الله عنه. ووَصَلَ إلى المِنْبَرِ يجرُّ رجليهِ ويَخُطُّ بهما الأرضَ لوَطأَةِ المرض. فجلسَ ﷺ على أوَّلِ درجةٍ من درجاتِ المنبر، وقال:

«يا أيها الناس بلَغَني أنَّكُم تخافونَ من موتِ نبيِّكُم، هل خلِّدَ نبيٌّ قبلي فيمن بعث إليه فأُخلَّدُ فيكم، ألا وإني لاحقٌ بربِّي، وإنكم لاحقون به فأُوصيكم بالمهاجرينَ الأوَّلينَ خيراً، وأُوصي المهاجرينَ

فيما بينهم بخير، فإنَّ الله تعالى يقول: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾ [سورة العصر]، وإنَّ الأُمورَ تجري بإذن الله، ولا يَحمِلُكُم استِبْطاءُ أمرٍ على استعجالِه فإنَّ الله ﷻ لا يَعْجَل بعَجَلَةِ أحد، ومَن غالبَ الله غَلَبَه، ومن خادعه خدعَه ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ۝٢٢﴾ [سورة محمد]. وأُوصيكُم بالأنصارِ خيراً فإنَّهم الذين تبوَّؤا الدارَ والإيمانَ من قبلِكُم. أَلَم يُشاطِروكم في الثِّمار؟ أَلَم يوسِّعوا لكم في الديار؟ أَلَم يُؤثروكم على أنفُسِهم وبهم الخَصَاصَة؟ ألا فمن وَلِيَ أن يحكم بين رجلَيْن، فليَقْبَل مِن مُحسِنِهم وليَتَجاوَز عن مُسيئِهم. ألا ولا تستأثروا عليهم: ألا وإني فرطٌ لكم وأنتم لاحقون بي، ألا فإن موعدَكُم الحوض، ألا فمن أحبَّ أن يردَه عليَّ غداً فليكفُفْ يدَه ولسانَه».

ففَقِهَها أبو بكر، فبكى، وقال: يا رسولَ الله، فديناكَ بآبائنا وأمهاتِنا. فقال ﷺ: «إنَّ أَمَنَّ النَّاس عَلَيَّ في صُحْبَتِهِ ومالِهِ أبو بَكْر، ولَوْ كُنْتُ مُتَّخذًا خَليلاً مِن أُمَّتي، لاتَّخَذْتُ أبا بَكْر، ولَكِن أُخُوَّةُ الإسلام ومَوَدَّتُه، لا يَبْقَيَنَّ في المَسْجِدِ بابٌ إلاَّ سُدَّ، إلاَّ بابَ أَبي بَكْر»، ثم دخل بيتَه.

بينما المسلمون يوماً في صلاةِ الفجر، يؤمُّهُم أبو بكر ﵁، إذا رسولُ الله ﷺ يفيقُ من غيبوبتِه ويشعُرُ بخفَّة، فيخرجُ إليهم. وتأخَّر

أبو بكر عن الإمامة، فأَوْمأَ ﷺ إليه بأن لا يتأخَّر، ثم جلسَ يصلِّي بإمامةِ أبي بكر مع المسلمين. ولمَّا فرَغ من صلاتِهِ التفتَ إلى الناس، وقال بصوتٍ قوي حتى سمِعَه من كان خارجَ المسجد:

«أَيّها النَّاسُ سُعِّرَت النَّار، وأَقْبَلَت الفِتَنُ كَقِطَعِ اللّيْلِ المُظْلِم، وإني واللّٰهِ ما تَمَسَّكُونَ عَلَيّ بشَيْء، إنِّي لَم أُحِل إلّا ما أَحَلَّ القُرْآن، ولَم أُحَرِّمْ إلَّا مَا حَرَّمَ القُرْآن».

لم تَأْتِ ضَحْوَةُ هذا اليوم حتى فارقَ رسولُ الله ﷺ هذه الدنيا ولحقَ بمَوْلاهُ وهو يردِّدُ في سكراتِ الموت: «إلى الرفيقِ الأعلى.. إلى الرفيقِ الأعلى». الصَّلاةُ والسَّلامُ عليك يا رسولَ الله، الصَّلاةُ والسَّلامُ عليكَ يا نبيَّ الرحمَة، وعلى آلكَ وأصحابِكَ أجمعين.

كانت ابنته (ﷺ) فاطمة في أثناء مَرَضِه كانت تعوده كلَّ يوم فيقبِّلها وتقبِّلُه، وبينما هي ذات يوم جالسةٌ حزينةٌ كئيبةٌ بجوارِ أبيها إذ هو يُسِرُّ إليها ببعضِ كلماتٍ، فَصَارَت تبكي وتَنْتَحِب. ثم أَسَرَّ لها مرةً أُخرى فَصَارَت تَضْحَك. ولما سأَلتْها عائشة رضي الله عنها فيما بعد عن هذا الأمر، أجابتها: لقد أَسَرَّ في الأولى خَبرَ وفاتِه فبكَيْتُ، ثم أَخبرني أنِّي لاحقةٌ به قريباً فضَحِكْتُ. وهكذا تُوفِّيت هذه الكريمةُ بنتُ الكريم وهي في عنفوانِ الصِّبا لتَلْحَقَ بأبيها ﷺ بعد ستَّةِ أشهر من انتقالِهِ إلى جِوارِ ربِّه تاركةً وراءها الحَسَنَ والحُسَيْنَ ريحانَتي رسولِ الله وسيِّدَي شباب أهلِ الجنةِ، عليهم جميعاً السَّلامُ والرَّحْمَةُ

والبَرَكاتُ من **الله**.

كانت وفاة النبي ﷺ يوم الإثنين في ١٢ربيع الأول، سنة ١١هجرية الموافق في ٨ حزيران، سنة ٦٣٣م عن عمر يناهز ٦٣ سنة قمريَّة.

لم يصدِّق عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه هذا الخبر لشدَّة الحزنِ والدَّهشَة، فاسْتَلَّ سيفَه وهَدَّد به كلَّ مَن يقول إنَّ محمَّداً قد مات. بل قال: إنَّ محمَّداً ذهب إلى ميقاتِ ربِّه كما ذهبَ موسى مِن قَبلِه أربعينَ يوماً. لقد أَطارَت المصيبةُ عقلَ عمر فغابَ عنه القرآن.

وقامت الضجَّة، فاختلطَ الحابلُ بالنابل؛ فهذا يبكي، وذاك يصرُخ، وآخرُ يصيحُ مكذِّباً. إلى أن دخلَ رجلُ الساعةِ الحكيم الذي لم تطلُع الشمسُ على رجلٍ -بعد النبيِّين- أَفضَلَ منه، جاء الصدِّيق رضي الله عنه بهدوئِهِ ووَقَارِه، فدخلَ على النبي ﷺ وهو مُسَجَّى في بيتِ السيِّدة عائشة أمِّ المؤمنين.. ثم جثا على ركبتَيْهِ يقبِّلُه ويبكي ويقول: بأبي أنت وأمي، لا يجمعُ **الله** عليك موتَتَيْن.. ثم مَسَحَ دموعَه، وخرجَ إلى المَسجدِ حيثُ الفوضى قائمةٌ على قَدَمٍ وَسَاق. فلما رآه المسلمون أفسَحوا له، وكان عُمَرُ رضي الله عنه لا يزالُ يتهدَّدُ ويتوعَّدُ من يقولُ بموتِ النبي ﷺ. فلما دنا مِن عمر قال له: على رِسْلِكَ يا عمر، أَنصِت. ثم حَمِدَ **الله** وأثنى عليه، ثم قال:

«أمّا بعدُ، فَمَن كان منكم يَعبُدُ محمَّداً فإنَّ محمَّداً قد ماتَ، ومن

كان منكم يَعبدُ **الله** فإنَّ **الله** حيٌّ لا يموت. قال **الله**: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔاۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [سورة آل عمران]. فهَدَأَ الناسُ، وهَدَأَ عمر، الذي قال فيما بعد: «و**الله**، ما هُوَ إلا أَن سَمِعْتُ أبا بَكْرٍ تلاها، فَعُقِرْتُ[١]، حتَّى مَا تُقِلُّني رِجلايَ، وحَتَّى أَهْوَيْتُ إلى الأَرْضِ حِينَ سَمِعْتُه تَلاهَا عَلِمْتُ أَنَّ النَّبيَّ ﷺ قَدْ مَاتَ».

واختار المسلمونَ أبا بكر ﵁ خليفةً لرسول **الله** ﷺ، ولمَّا فرغوا من هذا الأمر، غَسَّل رسولَ **الله** ﷺ أقربُ الناس إليه وأَحبُّهم إلى قلبه ابنُ عمِّه وصهرُه عليٌّ بن أبي طالب، مع عمِّه العبَّاس والفَضْل وقُثُم ابنا العباس ﵃.

وقد كُفِّنَ رسولُ **الله** ﷺ في ثلاثةِ أثوابٍ بيضاء اللون من القطن. ودخلَ الناسُ عليه أفواجاً يصلُّون عليه. ثم دُفن حيث توفِّي في حجرةِ عائشة ﵄، ورُفِعَ قَبْرُهُ عن الأرضِ قَدْرَ شِبْر.

لقد كان عليٌّ بن أبي طالب كرّم **الله** وَجْهَه ورَضِيَ عنه قاضي هذه الأُمَّة. وكان عمر ﵁ في خلافته يرجعُ إليه في كلِّ أموره. فإذا اشتدَّ عليه أمرٌ وكان عليٌّ غائباً عنه يقول: «قَضيَّةٌ ولا أبا حسَن لها»، كلُّ ذلك لعِلْمِه الواسِع وفقهِه العظيم، رغم أنَّه كان أحدث الخلفاءِ الراشدينَ سنًّا، وقد ذَكَرَهُ رسولُ **الله** ﷺ في أحاديثه، قال النبي ﷺ لعلي كرَّم **الله** وجهه: «أَما تَرْضَى أَن تكونَ مِنِّى بمَنْزِلَةِ

---

(١) عُقِرْت: دُهِشْتُ وتحيَّرت، وسَقَطْت.

هـارونَ مِن موسَى، غَيْرَ أنَّهُ لا نَبِيَّ بَعْدِي».

وهكذا توفي رسولُ الله ﷺ وترك للمسلمينَ ما إن اتبعوهُ لم يَضِلوا بَعدَهُ كتابَ الله الذي لا يأتيهِ الباطلُ من أي جهة، وسنَّة نبيِّه ﷺ، وتركَ أصحابَه الكرام البَرَرَة يوضِّحون الدِّين وسنَّة رسوله ﷺ، ويُتَمِّمونَ فتْحَ البلاد فيُقيموا فيها العدل ويَرفعوا منها الظلم، وتُشرق على الدنيا شمسُ الإسلام الحنيف ويُتِمَّ الله نُورَه ويحقِّق وعدَه.

من شمائل الرسول ﷺ

قال أبو هريرة رضي الله عنه: «ما رأيتُ شيئاً أَحسَنَ من رسولِ الله، كأنَّ الشمسُ تجري في وجهِه، وإذا ضحكَ تلألأ وجهُه تَلأْلُؤَ القَمَرِ ليلة البَدْرِ».

نظافته ﷺ

قال أنس رضي الله عنه ـ وكان قد خدَمَ رسولَ الله ﷺ عشرَ سنين ـ : «ما شَمَمْتُ عنْبَرا قَطُّ ولا مِسْكاً ولا شيئاً أَطْيَبَ مِن ريحِ رسولِ الله ﷺ».

وعن جابرٍ أنه عليه الصلاة والسلام مسَحَ له خدَّه يوماً، فوجدَ لِيَدِه برداً وريحاً كأنما أخرَجَها من عُلبَةِ عطَّار.

قوَّته ﷺ

صارع (رُكَانَة) ـ أقوى أهل زمانه ـ فصَرعَه ﷺ مرتين وثلاثاً، فعل ذلك لمَّا دَعاهُ إلى الاسلام، فاشترط عليه رُكَانَة أن يتصارعا، فإن غَلَبَه محمَّد ﷺ أَسْلَمَ، وإلاَّ فلا. فتَغَلَّبَ عليه ﷺ. وفي كلِّ مرةٍ

يقول رُكَانَة: (لم أَسْتَحْكِم، غَدَرْتَني) على لغة الأولاد.

وقال أبو هريرة: «وما رَأَيْتُ أحدًا أَسْرَعَ في مِشْيَتِهِ مِن رَسول الله ﷺ، كَأَنَّما الْأَرْضُ تُطْوى لَهُ، إنَّا لَنُجْهِدُ أَنْفُسَنَا وإنَّهُ لَغَيْرُ مُكْتَرِث».

أكله ونومه ﷺ

كان ﷺ لا يَشْبَعُ قَطُّ، وينهى عن الشِّبَع بقوله ﷺ: «ما مَلأَ ابْنُ آدَمَ وعَاءً شَرًّا مِن بَطْن، حَسْبُ آدمَي أُكُلَاتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ فإن كانَ لا مَحالَة، فثُلُث لطَعَامِه وثُلُث لِنَفْسِه».

وكان ﷺ لا يسألُ أهلَهُ طعاماً ولا يتشهَّاه كما نفعل اليوم؛ بل ما أَطعَمُوهُ أَكَلَ، وما سَقوهُ شَرِبَ. ويقول ﷺ: «إنَّما أنا عَبْدٌ آكُل كما يأْكُلُ العَبْدُ».

أما النَّومُ فما أَحَدٌ إلا ويعلمُ أنه ﷺ كان يقومُ الليلَ إلا قليلاً، يُصَلِّي ويَعبُدُ ربَّهُ شاكراً ما أَنعَمَ عليه من الهِدايَةِ والنُبوَّة والمَغْفِرَةِ والرِّضوان، عليه الصلاة والسلام.

شجاعته ﷺ

فَزِعَ أَهْلُ المَدينةِ ذاتَ لَيْلَة، فانْطَلَقَ ناسٌ قِبَلَ الصَّوْت، فَتَلَقَّاهُم رَسُولُ الله ﷺ راجِعًا، وَقَد سَبَقَهُم إلى الصَّوْت، وهُوَ على فَرَسٍ لأَبي طَلْحَةَ عُرْيٍ ما عليه سَرْجٌ، والسَّيْفُ في عُنُقِه، وهو يقولُ: «لَنْ تُرَاعُوا» أي لا تخافوا فلا شيءَ هناك.

أمَّا ما قالَهُ أَسَدُ الله الغالبُ عليُّ بنُ أبي طالب رضي الله عنه في شجاعته

ﷺ: «كان رسولُ الله ﷺ أَشجَعَ النَّاسِ على الإطلاق. كنَّا إذا حَمِيَ البَأْسُ واحْمَرَّتِ الحَدَقُ (١) اتَّقَيْنا برسولِ الله ﷺ، فما يكونُ أَحَدٌ أَقربُ إلى العَدُوِّ منه».

وفاؤه ﷺ

أما وفاؤه قبل البعثة وبعدها:

عَن عَبْدِ الله بن أَبي الحَمْسَاءِ قَال: بايَعْتُ(٢) النَّبيَّ ﷺ ببَيْع، وبَقِيَتْ لَهُ بَقِيَّة، فَوَعَدْتُه أَن آتِيَهُ بها في مكانِه، فَنَسِيت، ثُمَّ ذَكَرْتُ بَعْدَ ثَلاَث. فَجِئْتُ، فإذا هُوَ في مكانه، فَقال: «يا فتى، لَقَد شَقَقْتَ عَلَيَّ، أَنا ها هُنَا مُنْذُ ثَلاَثٍ أَنْتَظِرُك».

رَوَت عائشةُ، أُمُّ المؤمنين رضي الله عنها أَنَّ عجوزاً جاءَت إليه، فأَقبَلَ عليها ﷺ، واحتفى بها احتفاءً بالغاً. فلمَّا خَرَجَت العجوزُ، قالت عائشة: «يا رسولَ الله، تُقْبِلُ على هذه العجوز هذا الإقبالَ؟» فقال ﷺ: «إنَّها كانت تأتينا زمن خديجة، وإنَّ حُسْنَ العَهْدِ مِنَ الإيمان».

زهده وتقشفه ﷺ

دخل مرَّةً عبدُ الله بن مسعود رضي الله عنه على رسولِ الله ﷺ، فوجدَه مُضْطَجعاً على حصيرٍ خَشِنٍ أَثَّر في جَنْبِه. فقال مُشْفِقاً عليه: لو اتَّخَذْنا لَكَ وِطاءً تجعلُهُ بينَكَ وبين الحصيرِ يَقيكَ منه. فأجابه

(١) الحدق هو سواد العين. وعبَّر به هنا عن جملة العين، وعبَّر باحمرارها عن شدَّة الحرب واحمرار بياض العيون من الغضب.

(٢) أي بِعْتُ له.

ﷺ: «مَا لي وما للدُّنْيَا ما أَنا في الدُّنيَا إلا كَراكِبٍ اسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ ثُمَّ راحَ وتَرَكَها»؛ وهذا تصويرٌ صادقٌ لحالِ الإنسانِ في الدنيا ومُدَّةِ مَكْثِهِ فيها، لو اعتبر الناس!

لقد ضربَ رسولُ الله ﷺ المَثَلَ الأعلى في الزهدِ إذ كان يوزِّعُ على المسلمينَ بيادرَ الدراهمِ والدَّنانيرِ ثم يدخلُ بيتَه وليس فيه طعام.. حتى أنَّ عائشةَ رضي الله عنها كانت تقول: «كنَّا نَمْكُثُ الشَّهْرَ والشَّهْرَينِ لا يوقَدُ في بيتِنا نارٌ للطَّبخ، إنَّما هو الأَسْوَدان التَّمْرُ والماء».

تواضعه وبساطته ﷺ

كان رسول **الله** ﷺ أغنى الناس على الإطلاق؛ إذ فَرَضَ **الله** له خُمْسَ الغنائم. ومع هذا كان زاهداً يَرُدُّ هذا الخُمْسَ على الأُمَّة، ويَبيتُ وأَهلُهُ على الطَوَى. وهذه هي حقيقةُ الزهدِ أن يكونَ عن غنى لا عن فقر، وعن قُدْرَةٍ على الدنيا لا عن عجزٍ عنها. لهذا يقول ﷺ في إحدى خُطَبِهِ: «أيُّها النَّاس، إنَّ أَفضَلَ النَّاسِ عَبْدٌ تَواضَعَ عن رِفْعَة، وزَهِدَ عن غِنيَة، وأَنْصَفَ عن قُدرَة، وحَلُمَ عن قوَّة».

كان التواضع فيه ﷺ صفةً ظاهرةً، فقد كان هيِّناً ليِّناً سَهْلاً قريباً، يلقى النَّاسَ كبيرَهُم وصغيرَهُم بلا تصنُّع ولا تكلُّف، كما كان يأمرُ بالتَّواضع فيقول: «إنَّ **الله** أَوْحَى إِلَيَّ أَن تَواضَعُوا حتَّى لا يَفْخَرَ أَحَدٌ على أَحَد».

وكان ﷺ ينهى عن التكبُّر ويتوعَّد المتكبِّرين بقوله:

« يُحْشَرُ المُتَكَبِّرون يَوْمَ القِيامَةِ أَمْثالَ الذَّرِّ (١) في صُوَرِ الرِّجال، يغشَاهُمُ الذُّلُّ مِن كُلِّ مَكَان».

الاستئذان

كان ﷺ يستأذن على الناس في بيوتهم.

يقول قَيْس بن سعد:

زارنَا رَسولُ الله ﷺ فى منزلِنا، فقال:« السَّلامُ عَلَيْكُمْ ورَحْمَةُ الله». فَرَدَّ سَعْدٌ رَدًّا خَفيًّا وسَكت. فَقُلْتُ لأبي: ألا تَأْذَنُ لِرَسُول الله ﷺ؟ فقال: ذَرْهُ يُكْثِرْ عَلَيْنَا مِنَ السَّلاَم.

فقالَ رَسولُ الله ﷺ: « السَّلاَمُ عَلَيْكُم ورَحْمَةُ الله » مرَّةً أُخرى.

ولمَّا لم يَسمَعْ جَواباً، قَفِلَ راجعاً حسب تعاليم القرآن لأنَّه ﷺ التُّرجُمان الحقيقي للقرآن.

فتَبعَهُ أبي وقال: « يا رَسُولَ الله، إنِّى كُنْتُ أَسْمَعُ تَسْليمَكَ وأَرُدُّ عَلَيْكَ رَدًّا خَفيًّا، لِتُكْثِرَ عَلَيْنَا مِنَ السَّلاَم».

فرجَع النبي ﷺ مع أبي، فأمرَ له بِغُسْلٍ، فاغتَسَل، ثمَّ ناوَلَهُ مِلْحَفَةً فاشتَمَل بها، ثُمَّ رَفَعَ رَسُولُ الله ﷺ يَدَيْهِ وَهُوَ يقول:

«اللَّهُمَّ اجْعَلْ صَلَواتِكَ ورَحْمَتَكَ على آلِ سَعْدِ بنِ عُبادَة».

---

(١) الذَّرِّ: أَيْ صِغارِ النَّمْل. يغشاهم الذل من كل مكان: أي يأتيهم من كل جانب. والمعنى أنهم يكونون في غاية من المذلَّة والنَّقيصة.

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى في كتابه العزيز :

﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ
بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ
وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ
مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ
شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ
ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ٢٩ ﴾

{ سورة الفتح }

« صدق الله العظيم »

إن مطبوعات (العباد) مرخصة بالقرار رقم «٥٣»
تاريخ ١٧ / ١٢ / ١٩٧٩ الصادر عن وزارة الاعلام
الناشر : جماعة عباد الرحمن ـ بيروت
ص.ب. ١٥٥٠١٧ (بريد البسطة)
هاتف : ٨٩ / ٦٥٤٠٨٨ / ٠١
الموقع الإلكتروني : www.ibad.org.lb
البريد الإلكتروني : central@ibad.org.lb